مصنّفات غياث الدين منصور حسينى دشتكى شيرازى

(١٠)

مطلع العرفان

< في تفسير القرآن >

به اهتمام

عبدالله نورانى

بسم الله الرحمن الرحيم

<١>

تفسير سورة الانسان

بسم الله الرحمن الرحيم

ربّ أعِن

أحمدُ الله علىٰ جميل سلطانه ، وأشكرهُ علىٰ جزيل إحسانه . وأُصلّي علىٰ جميع أنبيائه وخُلّانه ، سيّما محمّد وآله وإخوانه.

وبعد ، فإنّ العبدَ الآنِسَ بمولاه ، الآيِسَ عمّن سواه ، المستغيثَ بالله الغفور ، غياث المشهور بمنصور ، يقول : إنّ هذا ، أيّها الإخوانُ ، تفسيرُ سورة الإنسان من مطلع العرفان، الّذي نرجو أن يُمهِلنا الزّمانُ لإتمامه ، ويُساعِدَنا الأمانُ في اختتامه . هذّبتُ فيه تمام كلام المفسّرين النّاظرين في الكلام ؛ ثمّ أُتبِعُهُ بزوائد من فوائد ، علىٰ ما يقتضيه الحالُ والمقامُ ، مُورداً ما أردنا إيراده في مشارقَ .

فاتِحةٌ فائحةٌ فاتِحةٌ

إنّ معرفةَ حال الإنسان في المنشأين ، من المعارف النّافعة له في النّشأتين ، وله في النّشأة الثّانية آلامٌ ولذّاتٌ جسمانيّة وروحانيّة تجدُهما في المعادين اللّذين قرّرهُما وأقرّ بهما أهلُ التّحقيق ، من العلماء والحكماء ؛ إلّا أنّهم عن آخِرهم أطبقوا علىٰ أنّ الجسمانيّ لا يُعرَفُ ثبوتاً وأحوالاً إلّا من الشّريعة ، والرّوحانيّ إلّا من الحكمة . وأنا

أرىٰ أنّ كُلّاً منهما يُعرَفُ من كلّ منهما ، كلٌّ بوجوه شتّىٰ ، أشرنا إليها في رسائلنا وكتبنا . والآنَ قصدنا بيانَ شيء من حالات الرّوحانيّات وتبيينَها من آيات القرآن في سورة الإنسان ؛ فإنّها مع ظهورها في الجسمانيّات يُعرفُ منها الرّوحانيّاتُ أيضاً .

المشرقُ الأوّلُ

قال‌الله سُبحانه و تعالىٰ: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَـٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا﴾ (١).

اتّفق المفسّرون علىٰ أنّ «هل» هٰهنا وفي «الغاشية» بمعنى «قد» . ويفيدُ مع التّقرير التقريبَ.فحاصل التّفسير: أنّه قد أتىٰ على الإنسان قبل زمان حينٌ من الدّهر. والحينُ طائفةٌ من الدّهر غيرُ محدود . وقيل : محدودٌ . عن ابن عبّاس وابن مسعود ـ رضي اللهُ عنهما ـ أنّ الإنسان هٰهُنا آدمُ والحينُ محدودٌ . وذلك أنّه مكث أربعين سنةً طيناً ، إلىٰ أن نُفِخَ فيه الرّوحُ ، فصار شيئاً مذكوراً بعدَ أن كان كالمنسيّ . وفي رواية : إنّه بقى طيناً أربعينَ سنةً ، وأربعينَ من صلصال ، وأربعينَ من حَمأ مسنون . فتمّ خلقهُ في مأة وعشرين سنةً . فهو في هذه المدّة لم يكن شيئاً مذكوراً . وإطلاقُ لفظ الإنسان عليه قبل نفخ الرّوح من قبيل إطلاق الخمر على العصير ، باعتبار ما يؤول إليه.

قال الإمام الرّازيُّ : «الّذين يقولون : الإنسانُ هو النّفسُ النّاطقة وإنّها موجودة قبل وجود الأبدان ، فالإشكالُ عنهم ساقطٌ» هذا تمامُ كلام الأعلام في المرام.

فأقول : إنّه بعدُ غيرُ تمام . (٢) وجوابُ الإمام تكلّفٌ ظاهرٌ . علىٰ أنّه لو كان الإنسانُ هو النّفسَ لاحتاج قوله تعالىٰ : ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ﴾ ، إلىٰ تأويل أو صرف . ثمّ لو جُعِل الإنسانُ عبارةً عن النّفس وكانت قديمةً ـ علىٰ ما هو رأيُ القائلين بوجودها قبل البدن ـ لكان جوابُهُ مَحلّ بحث بعدُ .

ثمّ أقولُ : الأولىٰ علىٰ هذا التّقدير أن يُفسّر الحينُ بالمعنى الأوّل ، أعني الزّمان الغير المحدود ، ليوافق القولَ بالقِدم . وأمّا الحدوثُ والقِدمُ فليس من المذاهب المقرّرة.

فان قُلتَ : دلّ الخبرُ عليه ؛ فإنّه يُروىٰ : «إنّ الأرواحَ خُلِقَت قبل الأجساد بألفي عام».

قلتُ : الدّلالةُ ممنوعةٌ : فإنّه لا دلالة علىٰ أنّ المرادَ بالأرواح النّفوسُ الإنسانيّةُ ، وبالأجساد الأبدانُ البشريّةُ . ولم لا يجوزُ أن يكون المرادُ الأرواحَ الملكيّةَ والأجسادَ العنصريّة ، أو أرواحَ العالم وأجساده علىٰ ما ذهب إليه الغزّاليّ . والأرواح البشريّة بالقياس إلىٰ أرواح العالم قليلٌ ، والمتبادرُ هو الكثيرُ ، لا القليل.

وقد يُقالُ في دفع ما تقدّم من الإشكال : إنّه قد أتىٰ على الإنسان الموجود في هذا الزّمان زمانٌ لم يكن شيئاً مذكوراً . والحاصلُ : أنّه قد أتىٰ علىٰ هذا الّذي هو الآنَ الإنسانُ بالفعل زمانٌ لم يكن هو فيه إنساناً إلّا بالقوّة.

وأقولُ : تحريرُ السّؤال وتقريرُ الإشكال : أنّ الظاهر من الآية الكريمة أنّه ورد على الإنسان حينٌ من الدّهر لم يكن الإنسانُ فيه شيئاً مذكوراً .

والمفسّرون ، حيثُ اعتبروا الإنسانَ في جميع أحيان وجوده شيئاً مذكوراً ؛ أشكل عليهم الأمرُ ؛ واعتمدوا في الجواب عن هذا السّؤال علىٰ أمرين :

أحدُهُما أنّ الّذي لم يكن شيئاً مذكوراً هو مادّةُ الإنسان ؛ وتسميتهُ بالإنسان مجازٌ ،كتسمية العصير والعِنَب خلّاً . وهو الّذي أُشيرَ إليه أوّلاً .

وثانيهما هو الّذي أشرنا إليه ثانياً . وحاصلهُ : أنّ الّذي هو الآنَ إنسانٌ كان مادّةً ؛ ولا يلزمُ اجتماعُ وصفَي العنوان والمحمول . فالموصوفُ بأنّه إنسانٌ لم يكن في بعض الأحيان شيئاً مذكوراً ، فلا مجازَ .

وأقول : فيه بحثٌ ؛ ولو صحّ هذا ، لصحّ أن يُحكم على الإنسان بأنّه جمادٌ بلا تجوّز . واختلافُ وقتي الوصفين غير مُخلّ في صورة بقاء الذّات ، لا في كلّ مادّة . فعلىٰ تقريرهم وتفسيرهم ارتكابُ المجاز لازمٌ .

ثمّ أقولُ : إنّ القواعد العربيّة والأُصول الأدبيّة تُفيدُ أنّ الإنسانَ المذكورَ أوّلاً هو بعينه الإنسانُ المذكورُ ثانياً ؛ لِما قرّروه ، من أنّ المعرفةَ المُعادةُ عينُ الأوّل . ومن

هذا قال قائلهُم :

إذا اشتدّت بك البلوىٰ ففكّر في «ألم نَشرَح» فـعُسرٌ بـينَ يُسـرين إذا فكّـرته فـافرَح

وعلىٰ هذا يظهرُ في كلام الإمام إشكال . علىٰ أنّ في كون العُسر بينَ يُسرين مُناقشةً (۳) ظاهرةً . ليست هي أنّ اليُسر أيضاً بينَ العُسرين ؛ لما مرّ ، بل هي أنّه إذا كان المعرفةُ المُعادةُ عينَ الأوّل كان العُسرُ الثاني عينَ الأوّل ، فلم يكن العُسرُ بينَ يُسرين ، بل كان مُقدّماً . اللّٰهمّ إلّا أن يُقالَ : إنّ المرادَ أنّ الأوّل في حكم المطروح ، لكنّه خلافُ ظاهر كلام الأعلام.

ثمّ أقولُ : إنّ الّذي أظنّهُ : أنّ الدّهر هو الزّمانُ المعيّنُ ، وهو زمانُ وجود العالم من أوّله إلىٰ آخره ، والحينُ : هو البعضُ منه ، وحينُ الشّيء زمانُ وجوده . ولا يبعدُ أن يراد ـ بالحين الآتي على الشّيء ـ الزّمانُ السّابقُ المقدّمُ الواردُ عليه حدوثاً ؛ وفي إتيان «علىٰ» إشعارٌ مّا إلىٰ هذا.

ولو كان المرادُ الحكمَ بعدم المذكوريّة على الإنسان في حين من الدّهر ، لم ترد الآيةُ بهذه العبارة ، بل يُشبِهُ أن يكونَ الغرضُ بيانَ الإنسان من أوّله إلىٰ آخره وكيفيّة حدوثه ووجوده ، وبيان ما خُلِقَ منه وكيفيّة تطوّره في أطواره حتّىٰ انتهىٰ إلىٰ كمال الإنسانيّة ؛ بل بيانُ مبادي الإنسان ، وقد عُدّ العدمُ من مبادى الحوادث .

وحيثُ اُشير في السّورة إلىٰ مبادي الإنسان لا يبعدُ أن يُفسّر الآيةُ [الأولىٰ] بما نفسّرهُ . فأقولُ : إنّه تقدّم علىٰ وجود الإنسان زمانٌ لم يكن الإنسانُ الحادثُ فيه شيئاً مذكوراً في الألباب ، بل الخالق ـ تعالىٰ ـ خلق بقدرته في ذلك الحين أجزاءً غيرَ مذكورة ، ثمّ جمعها بإرادته وخلق فيها نطفةً متطورةً في أطوارها حتّىٰ صار إنساناً كاملاً .

ثمّ إنّ جمهور المفسّرين حملوا النّطفةَ على ماء الرّحل وماء المرأة . وحيثُ أشكل عليهم الآيةُ في آدم وحوّاء اعتذروا بالتّغليب .

وأقولُ : لو حُملت النّطفةُ على الماء الصّافي لكان أصفىٰ وأولىٰ .

ثمّ إنّهم ـ علىٰ ما نقلنا عنهم ـ قرّروا في التّفسير : أنّ المراد أنّ الإنسانَ الّذي بالفعل أتىٰ عليه حينٌ لم يكن فيه إنساناً إلّا بالقوّة.

وأقولُ : صحّة هذا الحكم علىٰ ما تحكم به الفطرةُ الصّحيحةُ تستلزمُ حدوثَ الإنسان وتقدّم مادّته عليه وبطلان التّناسخ بمعنىٰ وجود شخص مرّةً أُخرىٰ قبل وجوده الآن ، أمّا الأوّلان فظاهرٌ لا حاجةَ لهما إلىٰ بيان ، وأمّا الثّالثُ ، فلأنّه لو وجد إنسان قبل وجوده الآنَ لم يصدق أنه أتىٰ عليه ـ أي : سبق علىٰ وجوده ومضىٰ علىٰ ما هو إنسانٌ بالقوّة ـ زمانٌ غيرُ محدود ، أي : غيرُ معلوم الطرف ، لم يكن فيه شيئاً مذكوراً ؛ ضرورةَ أنّه لو كان موجوداً مرّةً أُخرىٰ لكان شيئاً مذكوراً حيناً .

فاعرف هذا ، فإنّه مع وضوحه لا يخلو عن دقّة ، وتأمّل في كلام العليم الحكيم ، كيف يفيدُ مع وجازته وبلاغته أُصولاً مُهمّة نافعة ؛ فإنّ الحكم ـ بأنّه قد أتى (۴) على الإنسان حينٌ من الدّهر وزمانٌ غيرُ معيّن لم يكن شيئاً مذكوراً ـ فطريّ صحيحٌ يقبلهُ كلّ ذي طبع سليم وفهم صحيح مستقيم . ثمّ استلزامُ صحّة هذا الحكم لما مهّدنا من الأحكام ممّا لا يخفىٰ علىٰ ذوي الأفهام.

ثمّ استلزامُ بُطلان التّناسخ ، لامتناع قِدم النّفوس ، ممّا بُيّن في موضعه ، بما حاصلهُ : إنّ النّفوسَ متّحدةٌ نوعاً ، فلا تتكثّرُ شخصاً إلّا بعوارض بدنية ، فهي بدون الأبدان غيرُ متميّزة ، فليست بمتكثّرة . وعلىٰ هذا يمتنعُ وجودُ واحد منها أزلاً .

وتوضيحُ الكلام في المرام أنّ الشّيء ، إنّما يكونُ مذكوراً إذا علم بخصوصه وبما علم منه خصوصُه . فإذا كانت النّفسُ مخصّصة مُشخّصةً للبدنِ والشّخصِ ، فإن كانت قبل البدن موجودةً وعلمت كان الشّخصُ مذكوراً . فحيثُ لم يكن الإنسانُ في حين من الأحيان ـ وهو الحينُ المتّصلُ بوجوده ، أيّ قدر كان وإن كان قليلاً ، كساعة أو عشر ساعة ، أو الحينُ الّذي قبل وجوده إلىٰ أوّل الخلق ـ مذكوراً ـ لم يكن موجوداً ؛ إذ كلُّ موجود يعلمُ ويذكرُ ؛ وبذلك يُعلمُ بطلانُ التّناسخ والأزليّة ، كما لا يخفىٰ علىٰ من له فطرة ذكيّة . فهذا وجهٌ سنح لي .

وعندي احتمالٌ آخرُ: هو أنّ في الكلام حذفاً وإيصالاً. وحينئذ يكونُ مؤدّى التّفسير: قد أتىٰ مقدّماً على الإنسان حينٌ من الدهر. وعلىٰ هذا لا يخفىٰ وجهُ اعتبار شيء ممّا اعتبرناه آنِفاً. ويؤيّده أنّه «أتىٰ» في «هل أتىٰ، الغاشية» غيرُ متعدّ بـ«علىٰ».

المَشرقُ الثّاني

قوله تعالىٰ: ﴿ إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَـٰهُ سَمِيعاً بَصِيراً ﴾ (۲)

قال طائفةٌ من أهل اللغة: الأمشاج جمع مَشج ومَشيج، كخلط وخليط، لفظاً ومعناً. والجمعُ أخلاطٌ. وقال الأكثرون: هو مفردٌ، كالمشيج، فيوصفُ به المفردُ، كالأكناس؛ فيُقال: ثوبٌ أكناسٌ، وفي المثل: «عليك بالثّوب الأكناس، فإنّه من لباس الأكياس».

وتفسيرُ الآية: خلقَ الإنسانَ من نطفة قد امتزج فيها الماءآن: ماءُ الرّجل وهو أبيضُ غليظٌ وماءُ المرأة وهو أصفرُ رقيقٌ؛ والأوّل يخرُج من الصُّلب والثّاني من الترائب. فما كان من عظم وعَصَب وقوّة فمن ماء الرجل، وما كان من لحم ودم فمن ماء المرأة. وعن ابن مسعود: هي عروقُ النّطفة. وقال الحسنُ: أي: مزجت بدم الحيض الّذي منه غذاءُ الجنين. وعن قَتادةَ: هي أطوارُها: نطفة ثمّ علقة ثمّ مضغة. وقال بعضُ الحكماء: إنّها العناصِرُ.

أقولُ: الأظهرُ: أن يُفسّرَ من نطفة أمشاج نبتليه بالنّطفة المختلطة المنتقلة المتغيّرة من حال إلىٰ حال. ويُرادُ بالنّطفة ما هو أصلُ مادّة الإنسان، سواء كان منيّاً أو غيره، ليعمَّ الحكمَ ويوافقَ اللّغةَ ويُطابقَ قولَ ابن عبّاس، حيث قال: «نبتليه، أي نُصرّفهُ من حال إلىٰ حال، والإنسانُ هو آدَمُ».

ولنُفصّل الكلام في المرام (۵) تفصيلاً يناسبُ المقام، فنقولُ: إنّ المادة القريبة الّتي منها خُلِقَ الإنسانُ هي النّطفةُ الحاملةُ للقوّة المولّدة علىٰ رأى قوم، وهي

أمشاجٌ مُختلطةٌ بما يصيرُ غذاءً لها، كدم الطمث.

ثمّ لا يذهبُ علىٰ أهل العرفان: أنّ في خلق الإنسان لعجائبَ بديعةً وبدائعَ عجيبةً، مَن تأمّل فيه عرف قدرَ خالقه ومُصوّره.

قال المُشرّحون: إنّ النطفةَ الّتي قدّر بها الولدُ السّويُّ إذا وصلت إلىٰ مقرّه اختلطت بماء المرأة ودم الطمث فصارت كالرّائب. وحينئذ تُسمّىٰ علقةً. فإذا اشتدّ الامتزاجُ بينَهُما وقويَ استعدّ لأن ينقسمَ فيها الأعضاءُ. وتُسمّىٰ حينئذ مضغةً. فإذا اكتسبت الأعضاءُ صُوَرَها وتقسّمت، تصوّرت فيها وفي فُرَجِها وخِلالها من المواضع اللّائقة أجزاءٌ لحميّةٌ فصارت حيّاً وسُمّيت حينئذ جَنيناً.

و إلىٰ هذا أشار قوله تعالى: ﴿ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰماً فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْماً ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقاً ءَاخَرَ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ [المؤمنون / ١٤].

فانظر إلىٰ لطف صُنع الصّانع الحكيم، كيف خلق المولودَ من النّطفة ومَزَجَها بماء الحيض، كالسّاقي للزّرع، وكيف جعل النّطفة البيضاء علقةً حمراء، وكيف قسّم أجزاءها إلىٰ عِظام وأعصاب وعروق وأوتار ولحم، ثمّ كيف ركّب منها هذه الأعضاء الظاهرة، فدوّر الرّأسَ وشقّ في جانبيه السّمعَ، وفي مُقدّمه البصرَ والأنفَ والفمَ، وشقّ في البدن سائر المنافذ؛ ثمّ مدّ اليدَ والرّجل، وقسّم رؤوسهما بالأصابع.

ثمّ انظر: كيف ركّب الأعضاء الباطنة، من القلب والمعدة والكبد والطحال والرّية والمثانة.

ثمّ انظر إلىٰ العِظام مع قوّتها وشدّتها كيف خَلَقَها من نطفة سخيفة، وجعلها عماداً للبدن وقواماً له، وقدّرها بمقادير وأشكال مختلفة، فمِنها صغيرٌ وكبيرٌ وقصيرٌ ومستديرٌ ومجوّفٌ ومصمّتٌ وعريضٌ ودقيقٌ؛ ولم يجعلها عَظماً واحداً؛ لكون الإنسان مُحتاجاً إلىٰ حركة بجملة بدنه وببعض أعضائه؛ ثمّ جعل بين تلك

العِظام مَفاصل ؛ ثمّ وصلها بأوتاد أنبتها من أحد طرفي العظم وألصقها بالطرف الآخر كالرّباط له ؛ ثمّ خلق في أحد طرفي العظم زوائد خارجة وفي الآخر نُقَراً مُوافقةً لتشكّل الزّوائد ، ليدخل فيها.

وانظر : كيف خلق الرأسَ مع كُريّته من خمس وخمسين عظماً مختلفةَ الأشكال ؛ وألّف بعضَها مع بعض بحيثُ استوت به هذه الكرةُ ، فجعل في الحِقف ستّةً وفي اللَّحْي الأعلىٰ أربعةَ عشرَ واثنين للأسفل والباقي في الأسنان ؛ ثمّ جعل الرّقبةَ مُركّباً كالرأس ، وركّبها من سبع خرزات فيها (۶) تجويفاتٌ وزياداتٌ ونقصاناتٌ لينطبق بعضُها علىٰ بعض ؛ وركّب الظهرَ من أربعة وعشرين خَرَزةً ، وعظم العجُز ثلاثة أجزاء مختلفة ؛ ثمّ وصل عظام الظهر بعظام الصّدر وعظام الكتِف وغيرها حتّىٰ بلغ مجموع عظام بدن الإنسان مأتي عَظم وثمانيةً وأربعينَ ، سوى العِظام الّتي هي المُسمّىٰ بالسّمسميّ ، حُشِيَ بها خللُ المفاصل .

ثمّ انظر : كيف خلق الله تعالىٰ آلات التّحريك للعِظام ، وهي العضلاتُ ، فخلق فيه خمسَ مأة وعشرين عَضُلةً ، كلٌّ منها علىٰ قدر مخصوص ووضع مخصوص . ولو تغيّر عن ذلك ولو قليلاً لاختلّت مصالح هذا البدن . وكذا القولُ في الأعصاب والأوتاد والشّرائين .

ثمّ انظر كيف خلق الظهر أساساً للبدن والبطنَ حاوياً لآلات الغِذاء ، والرأسَ مجمعاً للحواسّ : ففتح العينَ ورتّب طبقاتها وأحسنَ شكلها ولونها واحكمها بحيثُ ينطبعُ في مقدار عدسة منها صورُ السّماوات علىٰ عِظمها ، وحماها بالأجفان ليسترها ويحفظها .

ثمّ أودع في الأُذُنين ماءً مُرّاً يدفعُ عنه الهوامّ وحوّطها بصدفتين لجمع الصّوت وردّه إلىٰ الصّماخ وليحسّ بدبيب الهوامّ . وجعل فيها تجويفات لتطويل الطريق ، فلا يصل الهوامٌّ إلىٰ جرم الصّماخ سريعاً.

ثمّ أوقع الأنفَ في الوجه ، وأودع في آخرها حاسّةَ الشمّ للاستدلال بالرّوائح

على الأطعمة والأغذية ، ولاستنشاق الرّوائح الطيّبة لتكون مِروحةً للقلب ؛

ثمّ أودع في الفم اللّسان وجعله على لون لَحمة واحدة مُعرباً عمّا في النفس ؛ وزيّن الفم بالأسنان ، فحدّد رؤوس بعضها ليكون آلةً للثقب والنّقب ؛ وحدّد رؤوسَ بعض آخر عرضاً كمَحادّ السّيوف والسّكين ومَقاطعها ليصلحَ للقطع ؛ وجعل رؤوسَ بعضها عريضاً مُفَرطحاً صالحاً للطحن ؛ ثمّ بيّض ألوانها ورتّب صفوفها وسوّىٰ رؤوسَها . ونسق ترتيبها حتّىٰ صارت كالدّرر المنظومة .

ثمّ أطبق على الفم الشّفتين وحسّن لونَها ليحفظ بها منفذَهُ. ثمّ خلق الحنجرة وهيّأها لخروج الصّوت . ثمّ خلق الحناجز مختلفةَ الأشكال والأوضاع في الضيق والسّعة والخشونة والملاسة والصّلابة والرّخاوة والطول والقصر ، حتّىٰ اختلفت الأصواتُ بسببها ، فلا يكادُ يتشابهُ صوتان ، بل يظهرُ من كلّ صوتين فرقٌ ليتميّز للسّامع بعضُ الأصوات عن بعض في الظلمة .

ثمّ سخّر كلّ عضو من أعضائه الباطنة لشيء مخصوص : فالمعدةُ لنضج الغذاء ، والكبدُ لإحالة الدم ، والطحال لجذب السّوداء ، والمرارةُ لجذب الصفراء ، والكلية لجذب الفضلة المائيّة ، والمثانةُ لخدمة الكلية بقبول الماء منها وإخراجها (٧) من طريق الإحليل ، والعروقُ لخدمة الكلية في إيصال الدم إلىٰ سائر أطراف البدن . وكان مبدأ كلّ ذلك من النّطفة ، وهي في داخل الرّحم في ظلماتٍ ثلاثٍ . ولو كشِفَ الغطاءُ وامتدّ البصرُ إليه لكان يرى التّصوير والتّخطيط يظهر عليه شيئاً فيشيئاً ، ولا يرى المُصوّرَ ولا آلتهُ ، فسُبحانه ، أعظم سلطانَهُ وأبهر برهانَهُ .

والعجبُ أنّه يتعجبُ من صورة مصنوعة في الإنسان مع أنّها أعجبُ ، بل أعجبُ من الأعجب . وذلك أنّه مع ما فيه من عجائب الصّور وبدائع النّقوش ، أودع فيه قوىً مُحرّكة فاعلةً وباعثةً ذاتَ شعبتين : شهويّة وغضبيّة ؛ ومُدركةً من الحواسّ الظاهرة والباطنة . فالظاهرة : هي اللّمسُ والذّوقُ والشّمُ والسّمعُ والبصرُ ؛ والباطنةُ : هي الحسّ المشترك المدركُ لمدركات الخمسة الظاهرة . والخيالُ الّذي هو خزانتهُ ؛ والمتصرّفةُ المتخيّلةُ ، والواهمةُ المُدركةُ للمعاني الجزئيّة ، والحافظة الحافظة.

ثمَ أقولُ : يمكنُ أن يُستفادَ من قوله تعالى : ﴿فَجَعَلْنَهُ سَمِيعاً بَصِيراً﴾ بوجهٍ وجيهٍ ، أنّ الإنسانَ بمزاجهِ في تركيبه استعدّ لهذه القوىٰ ؛ فإنّ في «الفاء» المفيد للتّرتيب واختيار السّميع والبصير دونَ السّامع والباصر إشعاراً لطيفاً بهذا .

ويمكنُ أن يُستفادَ أنّ لهذه القُوىٰ عاملاً يتصرّفُ فيها ، وهو النّفس النّاطقةُ المُسمّاةُ بالرّوح الإلٰهيّ . ولها سوىٰ ما ذكرنا قوىً في ذاتها ؛ فإنّ لها باعتبار تصرّفها وفعلها في البدن قوّةٌ تُسمّىٰ عمليّةً وعاملةً ، وباعتبار تعلّقها وانفعالها عن المبادى العالية ، بل المبدأ الأعلىٰ ، قوّةٌ أُخرىٰ تُسمىٰ عاقلةً وعالمةً ونظريّةً . ولكلّ منها ، في الاستكمال ، مراتبُ شتّىٰ .

<العقول الأربعة للقوّة النظريّة>

فللنّظريّة ـ علىٰ ما هو المشهورُ ـ أربعةٌ : العقلُ الهيولانيّ حال الاستعداد المحض وشُبّهَ بالمشكاة ؛ والعقلُ بالملكة عند حصول الضّروريّات وشُبّهَ بالزّجاجة ؛ والعقلُ بالفعل عند التّمكّن من استحضار النّظريّات وشُبّه بالمصباح ؛ والعقلُ المستفاد عند مُشاهدة النّظريّات وشُبّه بالنّور . والكمالُ الأقصىٰ إنّما يتأتىٰ باستكماله ، فهو المخدومُ وسائرُ المراتب والقوىٰ الّتي قدّامة خدّامُه .

<ذكر قليل ممّا جاء فى تفسير آية النّور>

<١> تبصرةٌ

إنّ الرئيس فسّر آية النّور علىٰ مُدركه ، فأجمل بوجه وأهمل بوجه . وذلك أنّه شبّه أُولىٰ مراتبِ النّفس في القوّة النّظريّة ـ وهي العقل الهيولاني ـ بالمِشكاة ؛ فإنّه كهي مُظلِمةٌ قابلةٌ لأن يحصل فيها مُنيرٌ مُستنير ، وشَبّه ثانية مراتبها ـ وهي العقلُ بالملكة الّتي فيها الضّروريّات ـ بالزّجاجة ؛ وثالثها ـ وهي العقلُ

بالفعل الّذي فيه الأنوار العلميّة ـ بالمصباح المُنير المُستنير (٨) . والنّفسُ نورٌ والعلمُ نورٌ آخَرُ . فالعلمُ في النّفس نورٌ علىٰ نور . ثمّ إنّه حمل الشّجرةَ الزّيتونةَ على الفكرة والزّيتَ على الحدس.[١]

وقال صاحبُ المحاكمات : هذه ليست منطبقةً على الآية ؛ فإنّه يصفُ الشّجرةَ بتلك الصّفات جميعاً ، فكيف تكونُ إشارةً إلىٰ أُمور مختلفة متباينة . فأجاب بما حاصلهُ : أنّ الشّجرة الزّيتونة شيء واحد له ترقّياتٌ في أطوارها ، فتكون أوّلاً شجرةً وفكرةً ، ثمّ تصيرُ حدساً وزيتاً ، ثمّ قوّةً قُدسيّةً . وهذه وإن كانت متباينة ترجعُ إلىٰ شيء واحد.[٢]

وأقول : لا يخفىٰ ما فيه من التكلّف والتّعسّف . وظاهرٌ أنّ الفكرةَ والحدسَ والقوّة القدسيّة ، أكثرُها في الأكثر ، لأشخاص مختلفة . ففي كيفيّة رجوعها إلىٰ الواحد تأمّلٌ .

والأظهرُ عندي : أن تُحمل الشّجرةُ الزّيتونةُ على المُفارق المُنوّر للنّفوس بأنوار العلوم ؛ والزّيتُ علىٰ ما فيها من شدّة قوّة الاستنارة والاستضاءة . وذلك الزّيتُ مُستفادٌ من هذا المفارق . والنّارُ هي المتوسّطةُ في الإضاءة بمنزلة العقل ؛ فإنّه بتوسّطها يشتعل ذلك الزّيتُ ، فيصرُ مُنوّراً كالمصباح . تأمّل في هذا ، واتل قوله تعالى ـ الآية ـ مُتأملاً في لطائفها ومناسباتها ، واعترف وتنبّه بما في قوله : ﴿وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ يَهْدِى اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَآءُ﴾ [النور / ٣٥] .

ثمّ أقولُ : علىٰ تقدير حمل المشكاة والزّجاجة والمصباح على المراتب الثّلاث يمكنُ تأويلُ تتمّة الآية ، بل تفسيرُها بوجه لعلّه أوجهُ وأظهرُ . وهو أن تكونَ الشّجرةُ الزّيتونةُ كنايةً عن مُفيض الكمالات والعلوم . والزّيتُ عن الّذي يفيضه من العلوم المستتبعة باستعدادها لعلوم أُخر ، كالضروريّات المستتبعة للنّظريات ؛ فإنّها لشدّة استعدادها للاستنارة كأنّها زيتٌ يشتعلُ سرعةً بمُماسّة نار ، وهو المفيضُ

---

١. ابن سينا، الإشارات، ج ٢، ص ٣٥٤.

٢. قطب الدين الرازي، الإشارات، ج ٢، ص ٣٥٦.

المنيرُ المنوّرُ كالنّار .

والضّروريّاتُ ـ علىٰ مذهب منصور ـ مُعِدّاتٌ لحصول النّظريّات الفائضة من مُفيض الكلّ وإنّها غيرُ فواعل علىٰ ما ظنّه قومٌ.

فالعقلُ بالملكة ـ وهو بمنزلة الزّجاجة ـ يتوقّدُ من تلك الشّجرة الزّيتونة ويستنيرُ بنور الضّروريّات وهي كالزّيت ، وبماله من شدّة الاستعداد للاستنارة والاشتعال ، بحيثُ «يُضيء ولو لم تمسسه نارٌ» ، ولم يحصل من المفيض فيضٌ جديدٌ . وكلٌّ من الضّروريّ والنظريّ نورٌ . فإذا ورد الثّاني على الأوّل فكان نورٌ على نور . والحقُّ أنّ الكلّ من نوره تعالىٰ : «فيهدى الله لنوره من يشاء» .

ولا يخفىٰ أنّ مثلَ ما أشرنا إليه علىٰ ما لوحنا إليه ونبّهنا عليه يتأتّىٰ في النّتائج والمُقدّماتِ كلّها ضروريّةً ونظريّةً ؛ وضربُ الأمثال للتفهيم والامتثال . هذا إتمامٌ لما رآه الرّئيسُ وأجمل وأهمل إتمامَهُ ، والشّارحون تبلبلوا فيه (۹) .

ثمّ إنّي أرىٰ وجهاً أوجهَ وأولىٰ وأشمل وأكمل وأحرىٰ . فيكنّىٰ بالمشكاة عن النّفس ، وبالزّجاجة عمّا يكونُ فيها ويعتريها من الإشراق والصّفاء ، امّا بعلوم أو بغيرها . وذلك بما يصفها ويُشرقها من شَبَه الزّيت المُنصبّ من الشّجرة الزّيتونة الّتي أشرتُ إليها ؛ وبالمصباح عنها إذا استنار بنور تُرىٰ بها حقائقُ الأشياء . وذلك من نور الله تعالىٰ .

تأمّل في هذا تعرف هذا من لطائف الآية ، وحُسن الإشارة منها لطفُ تشبيه ومرتبة أشرتُ إليها بالزّجاجة ؛ فإنّها كهي ترى ماوراءها . وذلك أنّ ذلك الإشراق والصّفاء بالعلوم أنفسها ، ضروريّاتها ونظريّاتها وتنظيمها وترتيبها ، أو بغيرها من الملكات الرضيّة المرضيّة ، كما في مراتب العمليّة ، يُرىٰ كالزّجاجة ماوراءها . واختيارُ الزّيت من الأدهان ؛ لأنّ له مع قوّة استعداد الاشتعال والإشراق شأنَ التّقوية والتصحيح ، ولهذا يُصحّح ويُقوّي الأبدانَ .

فمؤدّى التّفسير علىٰ هذا أنّه ـ تعالىٰ ـ مُنوّرُ الأرض والسّماء بما فيهما ، فيُنوّرُ

النّفسَ الإنسانيةَ ، فيجعلُها كمصباح يُرىٰ بنوره ما في الأرض والسّماء . وذلك المصباحُ يحصلُ في زجاجة «كأنّها كوكبٌ دُرّيٌّ» مشتعلٌ يتوقدُ بزيت ينصبُّ من شجرة زيتونة مجرّدة ، لا شرقيّة ولا غربيّة . وذلك الزّيتُ كنايةٌ عن قوّة الاستعداد وسرعة قبول الاستنارة والاشتعال كالزّيت . فذلك يكادُ يضيء ولو لم تمسسه نارٌ ، من المُنوّر المُفيض للأنوار، بوجه أُشير إليه.والزجاجة بما فيها من الإشراق والصّفاء بالعلوم وغيرها نورٌ ، ويرد ويزيد عليها نورُ المصباح ، فيكونُ نورٌ علىٰ نور . وغايته نورٌ يُرىٰ به ما يُرىٰ وذلك نورُهُ تعالىٰ . ولا يتأتىٰ هذا إلّا بهدايته وعنايته.

ولا يخفىٰ أنّه بهذا الّذي أشرتُ إليه يحتمل حملُ الآية على الإشارة إلىٰ الاستكمال بالكمال في العلوم والأعمال ، والله أعلمُ بحقيقة الحال وحقيّة المُقال . ولا يذهبُ عليك أنّ هذه كلّها ، ما ذكر وما ذكرنا ، تأويلاتٌ . والتّفسير علىٰ ما أحسنه هو الّذي أشرتُ إليه في سائر الرّسائل .

<٢> تنبيهٌ

الغرضُ من العرض بغرض التّحرير تقريرٌ تفسير فهمتهُ من قوله تعالىٰ : ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن نُّطْفَةٍ﴾ ؛ فإنّ التّقديم مع التأكيد يفيدُ مع التقرير حصراً ؛ إذ الوهم يوهمُ استناد التّصوير إلىٰ المصوّرة ؛ فإنّ الفطرة السّليمة تشهدُ بأنّ المصوّرة ، مركبةً كانت أو بسيطةً ، لا تتمكنُ من هذه التّصوير العجيب والتّشكيل البديع الغريب ؛ فإنّ البُنية البهيّة الإنسيّة خُلِقَت بوجه يترتبُ عليها بأجزائها منافعُ شتّىٰ ، علىٰ ما شرّحه أربابُ التّشريع عند شرح منافع الأعضاء.

وقد أشار الحكماء إلىٰ خمسة آلاف منها ؛ قالوا : إنّ الحدسَ الصّائبَ (١٠) يحكمُ بأنّ الّذي لم يدرك من منافعها أكثر من كثير ممّا أُدركَ .

قال الحكيمُ الجالينوسُ الطبيبُ في آخر كتاب كبير ألّفه لشرح منافع الأعضاء بعدَ التّشريح : «إنّي بعد ما عرفتُ هذه المنافع تنبهتُ بأنّ خلق الإنسان وأعضاءه ليس باتفاقيّ ، بل روعي فيه تلك المنافعُ ومصالحُ أُخرُ ليس إلّا فعلَ حكيم

عليم قدير» . هذا.

ثمّ لا يخفىٰ علىٰ أُولى النُّهىٰ أنّ الاستبعادَ في الاستناد إلىٰ اختلاف الاستعداد أكثرُ ممّا أنكروه وأصرّ جالينوسُ على إنكاره .

ثمّ إنّ الغزاليّ أسند أفعال المُصوّرة بل أفعال القُوىٰ كلها إلىٰ الملائكة . ولعلّه جرىٰ مجرىٰ من سبقه ، وتبعه في هذا من نظم إخوانَ الصّفاء .

وإنّي أُستفيدُ من هذه الآية وغيرها ردّ هذا أيضاً ؛ فإنّ من تفطّن بها تأكيداً وحصراً ، وعرف أنّ الإنسان في العلم والعرفان أكبرُ من الملك بكثير ـ علىٰ ما يُفصِحُ عنه التّنزيل والتّفسيرُ وأنّه ليس له أن يفعل ويتصوّر أدنىٰ من هذا ـ تنبّه بأنّ الخالقَ الفاعل لهذا التّصوير عليمٌ بالمنافع ، خبيرٌ حكيمٌ أحكم فعلهُ للمصالح ، بصيرٌ بها ، قديرٌ عليمٌ ، إنّه ليس إلّا فعلَ فاعل الكلّ ومُصوّره ، وقدّرهُ خالقُ العالم ومُقدّره.

وأنا أرىٰ أنّه كما يُستفاد من إتقان الفعل علمُ الفاعل ، كما قرّروه واستدلّوا به علىٰ علمه تعالىٰ ، كذلك يستفيدُ اللّبيبُ البصيرُ الخبيرُ من حال إتقان المصنوع ، كيفيّة وكميّة علم الصّانع كثرةً وقدرةً وقوّةً ، بل كثير من صفاته الخصوصيّة.

وبهذا الّذي قرّرتهُ تندفعُ شبهةٌ قويّة تردُ على المتكلّمين في استدلالهم بإتقان العالم علىٰ عِلمه تعالىٰ ؛ فإنّه يردُ عليهم : أنه لم لا يجوزُ أن يكونَ العالمُ فعلَ ممكن عالِم ، فلم يلزم علمُ الواجب تعالىٰ . وليس في كلام المتكلمين ما يفيدُ جواباً . وأنتَ إذا تأمّلتَ بما قرّرته تجدهُ صواباً .

توضيحُ هذا وتفصيلهُ : أنّه ـ تعالىٰ ـ صوّر صورةَ الإنسان بهذه الأعضاء والبنيان لمنافع لا تكادُ تحصىٰ ، وكثيرها بل أكثرُها لها ارتباطاتٌ شتّىٰ في منافعها بكثير ممّا في الأرض والسّماء . فلشدّة التّشابك والتّعانق بينها بمنافعها ، يكون كلّها فعلَ فاعل واحد ، بشهادة العقل وإفادة النّقل ؛ فإنّ للأُمور المترتّبة المتناسبة المتعانقة المترتّبة علىٰ تعانقها فوائدَ لا تكونَ إلّا فعلَ فاعل واحد .

ثمّ إنّ الإلٰهَ واحدٌ ، وغيرهُ فعلُه ؛ وفاعلُ هذه الأفعال وصانعُها ومصوّرُ الأرض

والسّماء ومدبّرُها بما فيها ، على ما أشرنا إليه، عالمٌ بصيرٌ مريدٌ قديرٌ خبيرٌ .

وبهذا يعلم أنّه تعالىٰ عالم بصير مريد قدير خبير ؛ فإنّه إن كان غيره كان مخلوقاً له ؛ وخالقُ مثل هذا العالم القادر أعلمُ وأقدرُ منه بشهادة الفطرة وحكم الفطنة ، هذا.

ولنرجع إلىٰ المقصود المعقود له الكلامُ في المرام ، فأقولُ : أهلُ العرفان عند النّظر (۱۱) في صورة الإنسان يُبصرُ ويعلمُ ويرىٰ أنّ هذا التّصوير ما ظهر إلّا من المُصوّر القدير الحكيم الخبير.

هركه بيند جان من داند كه اينهاكاركيست　　من نمى‌گويم تو كردى چاكها در جان من

<۳> تبصرةٌ

من تصوّر المُصوّرةَ عرف مصوّرها وتصوّر أنّه لا يتصوّرُ تـصويرُها صـورة مصوّرة تصوّر .

<۴> تذكرةٌ

روي الأخيارُ الأحبارُ في الأخبار عند الإخبار عن أخبار سند الأخيار : «أنّه خَلَقَ آدمَ عليه السلام بِيَدِهِ» في أخبار كثيرة عديدة مستفيضة معنىً .

<۵> تبصرةٌ

المشهورُ عند الجمهور أنّ لكلّ حادث مركّب خمسةَ مَباد : العدم ، والفاعل ، والغاية ، والصّورة ، والمادّة . ولا يخفىٰ علىٰ من فهم المرام وأدرك الكلام ، كيفيّة استفادة مبادي الإنسان من الآية ؛ فإنّه يُستفادُ من قوله تعالى : ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَـٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا﴾ العدمُ السّابقُ الّذي عُدّ من المبادي الخـمسة . ومـن قوله تعالى : ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَـٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾ سـائر الأربعة ؛ فإنّه يُستفادُ من «إنّا خلقنا» الفاعلُ . وهو الله سبحانه ؛ ومن لفظ الخلق ، أنّه له مادّةً ؛ ومن قوله : «من نطفة أمشاج» المادّةُ المخصوصةُ ؛ ومن قوله : «فجعلناه سميعاً بصيراً» الصّورةُ ؛ فإنّهما تابعان لها لازمـان ، لا يـحصلان للإنسـان إلّا بـعدَ تصوّر المادّة [بالصّورة] وفي تخصيصهما من سائر القوىٰ فائدةٌ سنشيرُ إليها . وفي

إعادة «الإنسان» زيادةُ إفادة لا تخفىٰ علىٰ ذوي العرفان والوجدان.

وممّا قرّرناه وحرّرناه يسمعُ ويبصرُ السّميعُ البصيرُ: أنّ السّميعَ البصيرَ كيف يلائمُ الاهتداء والابتلاء. وعلىٰ هذا لا يخفىٰ نكتٌ شتىٰ حيثُ ما عطف بالفاء. والسّبيلُ في قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ هو السّبيلُ إلىٰ تكميله، وبه يتوصل إلىٰ السّعادة القصوىٰ والجنّة العُليا، وهدايتهُ دلالتهُ علىٰ ما يتوصّل إلىٰ ذلك.

المشرقُ الثّالث

الشّكرُ صرفُ ما أعطاه ـ تعالىٰ ـ فيما خلق لأجله. والكفرانُ يُقابلهُ، ومنه الكفورُ المقابلُ للشّكور. ووقع هٰهُنا مقابلاً للشّاكر، اعتباراً لقلّة الشّكور. قال اللهُ تعالىٰ: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾. هذا ما سنح لي في تفسير هذه الآيات.

وخلاصةُ ما عثرتُ عليه من تفاسير المفسّرين: أنّ الإنسانَ خُلِقَ من أمشاج، لا للتّعب، بل للابتلاء والامتحان. ثمّ ذكر أنّه أعطاه ما يصحّ منه الابتلاءُ، وهو السّمعُ والبصرُ اللّذان هُما أشرفُ الحواسّ. ولهذا خُصّا بالذّكر. وفيه إشارةٌ بأنّ الحواسّ السّليمة أسبابٌ كليّة لتحصيل الكمالات النّفسيّة. فمن فَقَدَ حِسّاً فَقَدَ عِلماً. وقيل: في الآية تقديمٌ وتأخيرٌ. و«نبتليه»، معناه: لِنبتليه. والمعنىٰ: فجعلناه سميعاً بصيراً، (١٢) لنبتليه. وأقول: وعلىٰ تقدير ما اعتبروه لا حاجة إلىٰ تكلّف ارتكبوه؛ بل الكلامُ تمام، حسَنُ النظام، جيّدٌ الانتظام بدونه، كما لا يخفىٰ.

ثمّ إنّه أخبر أنه بعدَ أن ركّبهُ وأعطاهُ الحواسّ الظاهرةَ والباطنةَ أوضح له بوساطة أن آتاه العقل السّليم، سبيل الهُدىٰ والضّلال. فقوله: «إمّا شاكراً وإمّا كفوراً»، حالان من فعل: «هدينا»، أي مكنّا، أو قدّرنا في هاتين الحالتين. فعلىٰ هذا تقديرهُ: هديناه السّبيل، فيكونُ إمّا شاكراً وإمّاكفوراً. وفيه جهةُ الوعيد. أي: فإن شاء فليكفر وإن شاء فليشكر. ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلَاسِلَا وَأَغْلَالًا وَسَعِيرًا﴾. وللشّاكر

كذا . ويجوز بعد تقدير أن يكونا حالين عن السّبيل على الإسناد المجازى ؛ لأنّ وصفَ السّبيل بالشّكر والكفر مجازٌ . هذه الأقاويلُ تناسبُ أُصول المعتزلة.

وأمّا الّذي اختاره الفرّاء وهو يُطابقُ لمذهب أهل السّنّة : أنّ «إمّا» في هذه الآية ـ كما في قوله تعالىٰ : ﴿وَءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ ٱللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة ، ١٠٦]. والمعنىٰ : هديناهُ السّبيل ثمّ جعلناهُ تارةً شاكراً وتارةً كفوراً . والمرادُ بالشّكر : الإقرارُ بالله ، وبالكفران : إنكارهُ ، حتّىٰ لا يكون بينَ الفريقين واسطةٌ . ويجوزُ أن يكون المرادُ بالشّاكر المطيعَ ، وبأهل الكفران : كلّ من سواه ، سواء كان كافراً او عاصياً ، وهو الفاسق.

ثمّ من قرأ «سلاسلاً» بالتّنوين ، صرّفه . قال الأخفشُ : «سَمعنا من العرب صرفَ ما لا ينصرفُ . وهذه لغةُ الشّعراء ، حيث اضطرّوا عليه في الشّعر . فجرت ألسنتُهُم علىٰ ذلك في النثر أيضاً . وقيل : مُختصٌّ بهذه المجموع ؛ لأنّها أشبهت الآحاد . والاعتدادُ : الإعدادُ . والسّلاسلُ : للأرجُل . والأغلال : للأيدي . والسّعير لأجل العذاب . والأبرارُ في قوله تعالى : ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ﴾ جمعُ بَرّ ، أو بارّ . ﴿مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُوراً﴾ ، من إناء فيه الشّرابُ . قال ابنُ عبّاس ومقاتل : «هو الخمرُ نفسُها ، والمزاجُ ما يُمزَجُ ، والكافورُ اسمُ عين في الجنّة ، ماؤها في بياض الكافور ورائحته وبرده . ولكن لا يكون فيه طعمُ الكافور ولا مضرّتهُ . والمضاف محذوف ، أي ماء الكافور . والحاصل : أنّ الشرابَ يكونُ ممزوجاً بماء هذا العين . وقيل : «كان» زائدةٌ . والأظهرُ أنّها مُفيدةٌ ، لكنّها مسلوبة الدّلالة على المعنى . كقوله تعالىٰ : ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً﴾ . وعن قتادة : يمزجُ بالكافور ويُختمُ بالمِسك . وقيل : يُخلق فيه رائحةُ الكافور وبياضهُ وبردهُ ، فكأنّها مزجت بالكافور . قال جارُ الله : قولهُ : «عيناً» علىٰ هذين القولين بدلٌ من محلّ الكأس علىٰ تقدير حذف مُضاف ؛ فكأنّه قال : يشربون خمراً ، خمر عين ؛ أو نصبٌ (١٣) على الاختصاص.

ولا خلافَ بينَ العلماء : أنّ عباد الله في قوله تعالى : ﴿يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ﴾ مختصٌّ

بالمؤمنين الأبرار . فغلب علىٰ ظنّهم أنّ العبادَ المُضافَ إلىٰ اسم الله ـ سبحانه ـ مخصوصٌ في اصطلاح القرآن بالأخيار . وعلىٰ هذا يسقط استدلالُ المعتزلة بقوله : «ولا يرضىٰ لعباده الكفر» . وانّما قال أوّلاً : «يشربون من كأس» ، وآخراً : «يشرُبُ بها» ؛ لأنّ الكأسَ مبدأ شربهم . وأمّا «العينُ» فإنّما يمزجون بها شرابَهُم . فالباء بمعنىٰ مع ، مثل : شربتُ الماء بالعسل . «يُفجّرونها» يُخرجونها حيثُ شاؤوا من منازلهم . «تفجيراً» : تسهيلاً . هذا تمامُ كلام المفسّرين علىٰ ما عثرتُ عليه .

والّذي يُستفادُ من فوائدهم أنّهم حملوا السّلاسل والأغلال على الجسمانيّات من القيود الّتي تكون في الأبدان . فالسّلاسلُ للأعناق والأيدى والأرجل ، وقد تكونُ من الحديد ، والأغلالُ للأعناق ، والتسعيرُ للبدن كلّه .

وأقول : هذه في الأبدان ظاهرة ، وظاهرُ النّصّ عليها واردة ؛ إلّا أنّه مع وقوع هذه ، وهي تعذيباتٌ بدنيّةٌ ، يمكنُ أن تُجعَل كنايةً عن تعذيبات أُخر نفسانيّة .

فأقول : الكافرُ مقابلٌ للشّاكر ، كما أشرتُ إليه، فهو الّذي لم يعرف جميعَ ما أعطاه اللهُ ـ تعالىٰ ـ مِن المِنَح والعَطايا ، كالآلات والقُوىٰ في الأُمور الّتي خُلِقَت لأجلها ، وذلك لتقصير لا لقصور ؛ فإنّ القاصر الغير القادر غيرُ مكلّف ، فلا يكون كافراً ، بل الكافرُ ، حقيقةً هو الّذي صرف قواه فيما لم يُخلق لأجله ، فثبت فيه علومٌ باطلة وعقائدُ فاسدة ، ورسخ فيه ملكات غير مَلكيّة وأخلاق ذميمة رديّة . وهي من المُبعدات عن السّعادات المُعِدّات للشقاوة ، وفيه إعدادٌ للسلاسل والأغلال والسّعير ، كما لا يخفىٰ ؛ فإنّها موجبة لتعلّقات بالفاسدات واشتعالات وتسعيرات لنيران الأشواق واحتراقات بآلام الفراق.

فالنّفوس الجاهلة الكافرة في النّشأة الآخرة مُعرِضَةٌ أو غافلةٌ عمّا ينفعهُ ، غيرُ طالبة له ، طالبةٌ لما لا يمكنُ الوصولُ إليه والحصول لديه . فهي مُسلسلة مقهورة مغلولة مسعورة . فـ«السّلاسل» كنايةٌ عن التّعلقات الموجبة لانجذاب النّفس إلىٰ الدّنيّات البدنيّة والتّقيّد بها . و«الأغلالُ» كنايةٌ عمّا يمنعُها من التّوجّه إلىٰ الملاذّ

والمنافع العقليّة . و«السّعيرُ» عن «نار الله الموقدة الّتي تطّلعُ على الأفئدة» .

ولعلُ النّكتة - في تقديم السّلاسل ثمّ الأغلال ثمّ النّار - أنّ المؤدّبَ اللطيف الحاذق يُقدّم الأسهل فالأسهل حتّىٰ يختمُ بالأشدّ ، ليكونُ ذلك أردع للنّفوس الجاهليّة ؛ فإنّ تلك النّفوسَ الّتي فيها قساوةُ الجهل إذا ذكرت (١٤) عليها السّلاسلُ تفيدُها خوفاً . فإذا أُردفت بذكر «الأغلال» ازدادت خوفاً وهيبةً . فإذا ختم الذّكرُ بالنّار المسجورة ، فإنّها تكونُ في غاية الخوف . وهذا مفهومٌ ظاهرٌ بحسب العرف ؛ بخلاف ما لو قدّم الأشدُّ ؛ فإنّ ذكر السّعير في اوّل التّحذير ، إن أفاد النّفسَ انزجاراً . ففي الباقيين لا تستفيدُ شيئاً ، بل ربما يسهلُ عليها بسبب ذكرها ما توعّدت به.

إذا عرفتَ ذلك فلنبحث عن حقيقة العذاب والتّعذيب علىٰ هذه الطريقة ، فنقولُ : إنّ النّفوس الجاهلة الّتي كفرت بأنعُم الله ، بسببِ مُجاورة الأبدان ، تتمكنُ فيها مَلكاتٌ رديّةٌ بحسبِ قوّيتيها النّظريّة والعمليّة ، وهيآت مُنافية لكما لاتها . فإذا فارقت الأبدان أدركتِ الآلام الحاصلةَ بسببِ تلك الهيئآت الرّديّة تمكّن فيها شوقُ ما فارقته فلم يقدر عليه ، وكانت عديمةَ الوسيلة إلىٰ مُبدئها فلا يصل إليه.

ومُثّل ذلك بعضو بتمكّن فيه الألم ، إلّا أنّه حصل ما يعوقهُ عن إدراك ذلك الألم ، بأن صار خَدِراً . فإذا زال العائقُ حصل الألمُ . فبقىٰ حينئذ تلك النّفوسُ مقيّدةً بسلاسل علائق الأبدان مغلولةً بأغلال الهيئآت الرّديّة المتمكنة فيها مُتنكسةً في كرب سعير الأشواق ، محترقةً بنار ألم الفِراق . ﴿خَـٰلِدِينَ فِيهَا مَادَامَتِ ٱلسَّمَـٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ﴾ . وكانت قد ناداها مُنادى الحقّ ، فتغافلت وغوت . فخلّ عليها غضبُ الحقّ .

فهٰؤلاء هم الأشقياء ، سُلبت قواهم ، فصاروا في ظلمة الهيولىٰ ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ . وقيل فيها : ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكاً وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ ❁ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيراً ❁ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَـٰتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ﴾ .

ومن أعظم آلامهم : ﴿إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾ . ﴿يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى ٱلْإِيمَـٰنِ فَتَكْفُرُونَ ❁ قَالُواْ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ فَٱعْتَرَفْنَا

بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ﴾ .

فالموتُ الأوّلُ هو موتُ الجهل ، والحياةُ الأُولىٰ هي الوجودُ عن العدم ؛ والموتُ الثّاني هو مُفارقة الأبدان ، والحياة الثّانية النشور . فأحسِن بهذا الوعيد الّذي ترتعدُ من ظاهره فرائصُ الجاهدين وتقشعرُ من باطنه جلودُ السّالكين المُحققين .

واعلم أنّك لمّا فهمتَ حقيقةَ الشقاوة فينبغي أيضاً أن تفهَم أنّ النّفوس فيها علىٰ مراتبَ . وذلك لأنّ نقصانَ النّفس يكونُ لا مَحالةَ بسببِ فقد كمالاتها ، ثمّ فقد كمالاتها إنّما يكونُ لعدم الاستعداد له ؛

فعدمُ الاستعداد إمّا أن يكونَ لأمر وجوديّ أو عدميّ : الأوّلُ كوجود الأُمور المُضادة (۱۵) لكمالاتها : إمّا راسخةٌ أو غيرَ راسخة ، والثّاني لنُقصان غريزة العقل ؛ وهذه التّقديراتُ الثّلاثةُ هي أسباب النُّقصان . وكلٌّ منها إمّا أن يكونَ بحسب القوّة النّظريّة أو القوّة العمليّة . فكانت مراتبُ الأشقياء سِتّاً .

فالأُولىٰ ، ما يكونُ بحسب القوّة النظريّة راسخةً . وهي الّتي ذكرناها . وهذا القسم هو الّذي يدومُ به العذابُ ؛ لأنّه الجهلُ المركّبُ المُضادّ لليقين المتمكنُ في جوهر النفس.

وأمّا الثانيةُ ، وهي النظريّةُ الغيرُ الرّاسخة ، فكاعتقادات العوامّ وأصحاب التّقليد الباطل والحقّ ، فلهُم عذابٌ يخصّهُم ، بسبب أنّهُم عرفوا ، باكتسابِ مّا نظريّ ، أنّ لهُم كمالاً ، فحصل لهم شوقٌ بحسبه ؛ ثمّ لم يصلوا إلىٰ ما اشتاقوا إليه، من ذلك الكمال . والنّقصانُ اكتسابهُم النظريّ وقصورهُ عن الوصول ، سواء كان قصورهم عن الوصول إلىٰ الكمال ، لاشتغالهم بما يصرفُ عنه أو يُضادّ طلبه ممّا لا يكتسبُ النّفسُ هيأةً راسخةً ، أو لأنّهم تكاسلوا عن اقتناء الكمالات وأهملوها . لكن ذلك العذابُ دونَ العذاب الأوّل ؛ فهو منقطعٌ ، لكون الهيئآتِ الحاصلةِ لهُم بسببِ الاشتغال بالمُضادّ أو الصّارف أو التكاسل حالات غير متمكّنة من نفوسهم ولا مُستحكمة فيها ، أو لأنّها مُستفادةٌ من أفعال وأمزجة ، فيزولُ بزوالها.

وأمّا المرتبةُ الثّالثةُ ، والرّابعةُ ، وهما كائنان ، بحسب القوّة العمليّة ، راسخاً أو غيرَ راسخ ، فكالمكتسبين للأخلاق والملكات الحاصلة ، بسبب الغواشي الغريبة من النّقصان . ولهؤلاء عذابٌ مّا ، بسببها ، دونَ الأوّلين . وهو أيضاً زائل ، إمّا لعدم رسوخِها وإمّا لكونها هيئآت مُستفادةً من الأمزجة ، فيزولُ بزوالها ، كما مرّ ، وإن كان لها اختلافٌ في شدّة الرّداءة وضعفها وسرعة الزّوال وبطؤه ، فيختلف العذابُ بها بعدَ المفارقة ، في قلّته وكثرته وشدّته وضعفه ، بحسب الاختلافين.

وأمّا المرتبةُ الخامسةُ ، والسّادسةُ ـ وهُما النّقصانان الحاصلان عن نقصان غريزة العقل ، بحسب القوّتين ، أعني النّظريّة والعمليّة ـ فهي نفوسُ البُله والصّبيان الذين غلبت عليهم سلامةُ الصّدر وقلّةُ الاهتمام . وهي النّفوسُ السّاذجةُ الّتي ليسَ لها شوقٌ إلىٰ كمالاتها ، بسببِ أنّها لم تعرفها أصلاً . وهؤلاء غيرُ معذّبين ؛ لأنّهُم غيرُ عارفينَ بكمالاتهم ولا مشتاقينَ إليها.

المشرقُ الرّابعُ

قوله تعالى : ﴿إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ يَشۡرَبُونَ مِن كَأۡسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُوراً﴾ (٤)

أقولُ : لمّا قدّم الوعيدَ شرع في بيان الوعد . ولنُقدّم مقدّمةً في بيان درجات السّعداء ؛ فنقولُ : اعلم أنّ سعاداتِ النّفوس البشريّة ليست علىٰ نوع واحد ، بل هي علىٰ مراتب متفاوتة بحسب تفاوت الوصولات ؛ فإنّ فضلَ النّوع (١٦) البشريّ من أوفى الكمال ، في جنس القوّة النّظريّة ، حتّىٰ استغنىٰ عن التّعليم البشريّ رأساً ، وأوفىٰ مع ذلك ثبات قوّته المفكّرة واستقامة وهمه ، منقاداً تحتَ قلم العقل ، فلا يلتفتُ إلىٰ العالم المحسوس بما فيه حتّىٰ يُشاهد العالم المعقول بما فيه من الأحوال ، فيصيرُ العالمُ وما يجري فيه مُتمثلاً في نفسه ومُتنقشةً به ، ويكونُ بقوّته النّفسانيّة أن يؤثّر في عالم الطبيعة ، حتّىٰ ينتهى إلىٰ درجة النّفوس السّماويّة . وتلك هي النّفوسُ القدسيّةُ ، وأولاتُ المعارج . أولئك هم السّابقون السّابقون وأولئك هم المقرّبون ،

وهُم في المرتبة الأولىٰ.

الثّانيةُ مرتبةُ من له الأمران الأوّلان دونَ الثّالث، وهو التأثيرُ في عالم الطبيعة. وهو مرتبةُ أصحابِ اليمين. وتحتَها مراتبُ: فمِنها: مرتبةُ مَن له استعدادٌ طبيعيّ لاستكمال قوّته النّظريّة دونَ العمليّة. ومِنها: مرتبةُ من اكتسب ذلك الاستكمالَ في قوّته النّظريّة اكتساباً تكليفيّاً، دونَ تهيّؤ طبيعيّ، ولا حصّةَ له في أمر القوّة العمليّة، كالحكماء الإلهيين. ومِنها: مرتبةُ مَن ليس له تهيّؤٌ طبيعيّ ولا اكتسابٌ تكليفيّ في قوّته النّظريّة، وله تكلّفٌ في إصلاح الأخلاق واكتساب الملكات الفاضلة دونَ تهيّؤ طبيعيّ لذلك. ويُشبِهُ أن يكونَ اسمُ الأبرار مُطبقاً بحسب المراد علىٰ أصحاب المرتبتين الأُوليّين، وإن كانوا من أصحاب اليمين أيضاً؛ واللهُ أعلمُ.

وأمّا أصحابُ المرتبتين الأخيرتين فهُم سائرُ الأذكياء من النّاس؛ فاعلم أنّ للمقرّبينَ البالغينَ في الملكات الشّريفة لذّاتٍ عظيمةً قد فازوا بنعيم الأبد والسّرور الدّائم في حضرة جلال ربّ العالمين، ﴿فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾، غيرَ مُخرجين عن لذّاتهم. «ولهُم فيها ما تشتهيه الأنفسُ وتلذُّ الأعيُنُ»، جُردٌ عن عوارض الهيولىٰ، مُردٌ عن مزاحمة القُوىٰ، مُكحّلون بالأنوار السّاطعة، ينظرون إلىٰ وجوههم المفارقة، والنّفسُ يومئذ كلُّها وجهٌ وكلُّها عينٌ.

وأمّا أصحابُ اليمين، فلهُم لذّاتٌ دونَ الوصول إلىٰ مرتبة السّابقين. وقد تخالط لذّاتهُم شوباً من لذّات المقرّبين، كما أُشير إليه في شراب الأبرار أنّه ﴿مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ * خِتَـٰمُهُۥ مِسْكٌ وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَـٰفِسُونَ * وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ * عَيْناً يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ وهؤلاء لهمُ العروجُ إلىٰ مُشاهدة الواحد الحقّ مستغرقين فيه.

وأمّا الأبرارُ من جملة أولئك فلهُم ما وعد: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُوراً﴾، فنقول: الكأسُ في اللّغة: الإناءُ بما فيه من الشّراب، والشّرابُ نفسهُ يُسمّىٰ كأساً، عبّر به هٰهُنا عن العلم. والمرادُ أنّ النّفوسَ الفاضلةَ الّتي سمّاها (١٧) بالأبرار، إذا استعدّت لإفاضة العاليات عليها، الكمال الّذي تمّ استعدادُها له. وهو

أن يَتمثل فيها ما تتعقّلهُ من الحقّ الأوّل ـ عزّ سُلطانُه ـ بقدر ما تستطيعه ؛ فإنّ تعقّلَ الحقّ الأوّل كما هو غيرُ ممكن لغيره . ثمّ ما تتعقّلهُ من معلولاتها الذّاتيّة ، أعني الوجود كلّه بحسب استعدادها تمثّلاً يقينيّاً ، خالياً عن شوائب الظّنون والأوهام ، مُبرّءاً عن جلابيب الأبدان ، أُفيض عليها.

وإنّما شُبّهَ العلمُ بالكأس ـ وهي الشّرابُ ـ لاستلزامِها السّكرَ والنّشوةَ ؛ وإن كان فرقانٌ مّا بينَ النّشوتين وفرقانٌ مّا بينَ اللّذتين والمُسكِرين ؛ فإنّ أصحابَ تلك التّعقّلات هم بالحقيقة النّشاوىٰ من كأس المقرّبين ، السُّكارىٰ من رحيق عِلّيّينَ ، الفرقىٰ في بحار أسرار طور سينين ، الولهىٰ في ديار المقدّسين ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَٱغْفِرْ لَنَآ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ . [التحريم ، ١].

وقولهُ : «كان مزاجُها كافورا» ، هو وصفٌ لتلك الكأس ، وخصوصُ الكافور ، لكونه مُستلزماً للبياض الّذي هو أشرفُ الألوان المُشرقة . ثمّ لاستلزامِه الرّائحةَ اللّذيذةَ ، ثمّ لكون كلّ واحد من هذه الأوصاف المحسوسة قد شابههُ وصفٌ من الأوصاف العقليّة ، فلأجله وُصِفَ المشبّهُ به ـ وهو الكأسُ ـ بما استلزم هذه الأوصافَ المحسوسةَ .

فأمّا البياضُ ، فلأنّه أشرفُ الألوان الصّافية وأبعدُها عن الكدورات . ولذلك كان أحبُّ الثّيابِ إلىٰ رسول الله ﷺ البِيضَ . وتلك التعقّلاتُ لمّا كانت مُبرّاةً عن شوائب الأوهام وكدوراتُ الخيال كانت في غاية الإشراق والصّفاء ، فاستحقّ اسمُها ـ وهو الكأسُ هٰهُنا ـ أن وُصِفَ بالامتزاج بما استلزمَ البياضَ لتلك المُشابهة.

وأمّا الرّائحةُ ، فلأنّ رائحةَ الكافور لمّا كانت أبلغَ الرّوائح العَطِرَةِ ـ وكان لما يمتزجُ بالكافور لذّةٌ تامّةٌ من جهته وكان الإدراكُ العقليُّ كرائحة من الإفاضات العالية فوقَ ما يصفهُ الواصفون ـ استحقّ الكأسُ أن وصف بالمُستلزم لتلك الرّائحة وإن كان فرقانٌ مّا بينَ الرّائحتين وفرقانٌ مّا بينَ اللّذتين . والأظهرُ أن لا يُعتبرَ الرّائحةُ في وجه التشبّه وإن كان لاعتباره وجهٌ بوجه.

ثمّ أقولُ : مع هذه الفوائد كلّها ، فيه لطفٌ لطيفٌ لا يخفىٰ ، بل لطائفُ لا تُعدُّ ولا

تُحصىٰ . منها : أنّ من خواصّ الكافور إزالةُ الحرارة الرّاسخة المُهلكة المُتمكنة في جوهر ذاتِ الشّخص ونفسهِ ، ولذلك يُعالجُ المدقوقين بها وبما يُمازجهُ . فشُبّهَ العلومُ والفضائل المُزيلةُ للجمالات وسائر الملكات المُشبّهة بالسّعير ، به ، لما به ، ولهذا (١٨) والمشهورُ عندَ الجُمهور من بَرد اليقين يُؤيّدُ هذا تأييداً بيّناً .

ثمّ أقولُ : لو أُريد بالكأس ، مجازاً ، من مفيد العلوم والأخلاق الفاضلة أو ما يستفيدُ منها هذه ، انفتح أبوابٌ أُخر من التّفسير وظهر وجوهٌ للتّفجير.

المشرقُ الخامسُ

قوله تعالىٰ : ﴿ عَيْناً يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيراً ﴾ (٥)

قال صاحبُ الكشّاف : «عيناً بدلٌ من كأس ، أو نصبٌ على الاختصاص» .

والأوّل ضعيفٌ ؛ لأنّ عيناً علىٰ تقديره : تصير هي المقصودَ بالكلام دونَ الكأس . وهو غيرُ صحيح ؛ لأنّ كلّ لفظ مقصودُ التّأدية لمعناه دونَ تعطيل وإلغاء ما هو الأصل ، فكان التّباينُ أولىٰ .

والثاني أيضاً ضعيفٌ ؛ لأنّ المنصوبَ على الاختصاص منصوبٌ بفعل مُضمَر ، تقديرهُ «أعني أو أُريدُ» . وحينئذ يكونُ المقصودُ [من الكأس هو المقصود] من العين لكنّ التّباين أولىٰ من التّرادف بالأصل ؛ ولأنّه قد تبيّن لك أنّ للعين معنىً آخرَ .

إذا عرفتَ ذلك ، فنقولُ : إذا فهمتَ من الكأس ما ذكرناه ، فافهم الآنَ : أنّ عيناً منتصبةٌ بحرف الجارّ ؛ والتّقديرُ : من كأس من عين.

ثمّ اعلم أنّ المرادَ من العين الإشارةُ إلىٰ العقل العاشر من العقول العشرة المنتهية في سلسلة الحاجة إلىٰ الينبوع الأكبر ، وهو الواجب الأوّل ـ جلّ ذكره ـ علىٰ ما بُيّنَ في موضعه . وذلك العقل هو المسمّىٰ بالعقل الفعّال ، أي الفاعل لكلّ ما في العالم السّفليّ . أمّا باعتبار تعقّله لإمكانه ، فيحصلُ عنه هيولى العناصر الأربعة

المشتركة بينها ؛ وأمّا باعتبار تعقّل ماهيّته فصُوَرُ تلك العناصر ؛ وأمّا باعتبار حدوثه عن المبدأ الأوّل فالنّفوسُ الناطقةُ وكمالاتُها ، وإن كان ذلك بمعونة من الأجرام السّماويّة ، لاشتراكها في الحركة الدّوريّة ، بحسب الاتصالات والاقترافات الكوكبيّة . وهذا العقلُ ، لكثرة المعاونات والمُعِدّات والاستعدادات المختلفة الوانُها ، يُفيضُ أُموراً مختلفةً .

إذا عرفتَ ذلك فنقول : إنّما أُطلق اسمُ العين عليه، لأنّ العينَ لمّا كانت هي الينبوعَ يروي العالمُ وينتفعُ به ويأخذ كلّ شخص منه حصّةً للشّرب والزّرع وأنواع الانتفاعات ، وكان العقلُ لكثرة إفاضته ، بحسب الاستعدادات المختلفة يأخذُ كلُّ ممكن منه بحسب إمكانه حصّةً ـ كان بينَهُما مُشابهةٌ من هذا الوجه . فأُطلِق اسمُ العين عليه لأجلها . وللمُشابهةِ بينَ العلم والماء بوجوه وكونِ العقل مُفيضَ العلم شُبّهَ بالعين ، وهي ينبوعُ الماء . ولأجل تلك المشابهة كان المعبّرون كثيراً مّا يُعبّرون الماء الصّافي بالعلم ، والينبوع الحَسَن الجارى بالرّجل الفاضل ، هذا .

وإن كان اليُنبوعُ الحقُّ للكلّ هو المبدأ الأوّل ـ جلّ وعلىٰ ـ ثمّ العقل الأوّل ثمّ العقل الثّاني (١٩) ثمّ العقلُ الثالثُ ، وهكذا إلىٰ العاشر ؛ إلّا أنّ هذا العقلَ هو الفاعلُ الأقربُ لما في هذا العالم.

و«مِن» في الشُّرب الأوّل لبيان الجنس وفي الشُّرب الثاني ، «الباء» للإلصاق . وأمّا «عبادُ الله» فمنهُم من ذكرناهم آنِفاً من المقرّبين والّذين يتلونهم من أصحاب اليمين علىٰ مراتبهم.

وإذا فهمتَ ذلك تبيّن حينئذ قول الله تعالىٰ : «يُفجّرونها تفجيراً» ، أي ينالُ كلٌّ منهُم في كلّ وقتٍ ما استحقّهُ ، بحسب إمكانهِ واستعدادهِ . وقد أُشيرَ إلىٰ وجه آخر من التّفسير ، فلا تغفل عنه ، وعلىٰ هذا لا حاجةَ إلىٰ جعل العين منصوباً بنزع الخافض ، كما صرّحنا به .

ولا بأس بمزيد تحرير لوجوه تفسير أشرنا إليها فيما مضىٰ ، فنقولُ : لا يخفىٰ

علىٰ من تفطّن أنّه يُستفادُ بما علّمناك وجوهٌ وجيهةٌ من التّفسير :

(١) مِنها : أن يكونَ المرادُ بالكأس الشّرابُ ، ومن الكافور ما يُشبِهُ الدّواء المشهورَ ومن غير اعتبار الرائحة المنكرة في الشّمّ ، ومن المزاج الامتزاجَ . فشُبِّه العلومُ والمعارفُ بالشّراب الممتزج بما يُشبه الكافور المبرّدَ وبما يتبعُها من الفرح والنّشوة والرّوح والتّقوية وإنعاش الحرارة الغريريّة وإطفاء الحرارة الغريبة المُفسدة المُهلكة ؛ فإنّ الشّرابَ الممزوجَ بالكافور وشبهِهِ باعتدال تزولُ عنه الحرارةُ المُفسدةُ والرّائحةُ الكريهةُ ، ولا يُورِثُ مُسكراً ولا خُماراً . ويُستفادُ من لفظ الشّراب الاعتدالُ ؛ فإنّ الكثير المُسكِر يُسمّىٰ خمراً ، لا شراباً .

(٢) ومِنها : أن يُرادَ بالكأس الوعاءُ ، وبالشّرب منها استفادةُ العلوم والمعارف . ويكونُ مزاجُها كافوراً إشارةً إلىٰ أنّ تلك الكأس مُبرّدٌ به مزاجُ الكافور ؛ فإنّه قد يُرادُ بمزاج أمر الكيفيّة الظاهرة منه حرارةٌ أو برودةٌ ، علىٰ ما هو المشهورُ ، عند الجمهور ؛ فإنّه يقالُ : «مزاج الزّنجبيل حارّ» ؛ مراداً به أنّه يفيدُ حرارةً . وإذا كان مزاجُ الكأس كافوراً شبيهاً به كان مُبرّداً . فيُبرّدُ الشّرابُ ، وتزيلُ سخونتهُ المُفسدةَ.

ويُقصَدَ بِـ«العين» الماء وما يشبهه ؛ فإنّ العينَ كما يُطلقُ علىٰ منبع الماء يُطلقُ على الماء التّابع النّافع ، فيُقالُ : عينٌ جاريةٌ . فعلىٰ هذا يكون «عيناً» مفعولاً لـ«يشربونَ» . فمؤدّى التّفسير ؛ أنّ الأبرار يشربون من كأس مُبرّد عيناً ، هي الماء النابعُ والشّرابُ النّافع . والتفجيرُ : كنايةٌ عن تهيّة أسباب الاستفاضة والإفاضة.

ثمّ الأظهر الأولىٰ أن تكونَ الآيةُ إشارةً إلىٰ حال الأبرار في النّشأتين : الحال والمآل ، وحالُها بحالها كسابقها ولاحقها ، يؤيّدُ الحال . واللهُ أعلم بحقيقة الحال . وعلىٰ هذا يصحّ أن يُقصَدَ بها المفيضُ والمقدّماتُ . ولكلّ وجه شبه لا يشتبهُ . وحينئذ كان المزاجُ بالكافور كنايةً عن تبريدها بإفادتها بردَ اليقين.

ثمّ أقول (٢٠) : لو أُريد بالكأس : المفيضُ ، أمكن حملُ الكافور علىٰ مَعان شتّىٰ : منها ما مضىٰ . وحينئذ يمكنُ أن يُجعَل «عيناً» حالاً . ويُستفادُ من هذا الوجه

وجهٌ لطيفٌ لكون المفيض خزانةً . فتفطّن له ؛ فإنّه مع وضوحه لا يخلو عن دقّة مّا

(٣) ومنها : أن يكونَ الكافورُ بمعنى الكمّ . ولا يخفىٰ لطفُ هذا ؛ فإنّ الاتصال والامتزاج بالمُفيض كأنّه كِمٌّ فيه زَهرٌ يتبعهُ ثمرٌ .

(٤) ومنها : أن يكونَ بمعنى الطّيب ، وطيبهُ لا يخفىٰ .

ولا يذهبُ عليك كيفيّةُ إجراء بعض تلك الوجوه علىٰ تقدير إرادة المقدّمات من الكأس . وبيّنٌ أنّه يجري على الوجهين ما أجريناه أوّلاً . وإن حُمِلَ الكافورُ علىٰ مُوجب الكفّارة أو الكفّارة بتوسّع انفتح بابٌ آخرُ من التّفسير ونمطٌ جديدٌ جيّدٌ من التّحرير والتّقرير.

<١> تنبيهٌ

إنّ الكأسَ له قدرٌ مُقدّرٌ ينفدُ لشُربٍ يُشرَبُ به . والعينُ لا تنفدُ وما جرت العادةُ بشربها ، كالكأس . فالمفيضُ فيما يحسُنُ منه جامعٌ للأمرين فشُبّه بهما ، فتفطّن بهذا.

<٢> تنبيهٌ و تبصيرٌ

المِزاجُ : الامتزاجُ والطبعُ والخاصّةُ تنبه له ؛ فإنّه بامتزاجه مع الكافور بمعانيه يحصلُ مَعانٍ و تفاسيرُ لطيفةٌ بديعةٌ.

المشرقُ السّادسُ

قوله تعالىٰ : ﴿ يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْماً كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيراً ﴾ (٦)

وصف عباده بالوفاء بالنّذر مُبالغةً في وصفهم والمواظبة على الطاعات المقترنة ؛ لأنّ من أوفىٰ بما أوجبه علىٰ نفسه ، تقرّباً إلىٰ الله تعالىٰ ، كان بما أوجبه الله تعالىٰ عليه أوفىٰ وعلىٰ ما ألزمه به أشدّ مواظبةً . ثمّ من أوصافهم أنّهم يخافون يوماً كان شرّه مستطيراً ، أي منتشراً عامّاً . وذلك إشارة إلىٰ الوقت المعلوم الّذي يُتقدّر فيه ضرورةُ الموت .

ثمّ لمّا كانت تلك الضّرورةُ عامّةً في حقّ كلّ من أبناء هذا النّوع وكان ذلك شرّاً في حقّ الغالب والأكثر من النّاس، بسبب مفارقة نفوسهم لآلاته الاستكمالية الّتي هي الأبدان وهي غيرُ مستكملة بعدُ، لم يحصل لها ملكةُ الاتصال بمباديها ولم يفز بالمقاصد الكلّية، فيحصل لها بسبب ذلك العذابُ الأليم، وأنّها تلطّخت بالهيئآت البدنيّة وتخلّقت بالأخلاق الرّديّة، فلا جرمَ كان ذلك شرّاً لها مستطيراً عامّاً في حقّ الأكثر.

وأقولُ: لا بُعدَ في حمل الوفاء بالنّذر على الإتيان بالتكميل والاستكمال الّذي خُلِقَ لأجله الإنسانُ، فكأنّه عهدٌ ونذرٌ. وذلك في مبدأ الفطرة. وفي بيّنات الآيات إلىٰ ذلك إشاراتٌ.

المشرقُ السّابعُ

قوله تعالى: ﴿وَيُطعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسكِيناً وَيَتِيماً وَأَسِيراً * إِنَّمَا نُطعِمُكُمْ لِوَجهِ ٱللهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُوراً﴾ [٨ ـ ٩].

هذا وصفٌ ثالثٌ لهم: بأنّهم يطعمون الطعام علىٰ حُبّه. والمُطعمون (٢١) علىٰ أصناف أربعة؛ لأنّ المنفق في تلك الجهة إمّا أن يُنفق من مال محبوب عنده، أوليس بمحبوب. وعلى التّقديرين إمّا لغرض دنيويّ أو [غرض] أُخرويّ. فهي أقسامٌ أربعةٌ.

(١) (٢) فالّذي ينفقُ لغرض دنيويّ، سواء كان ما أنفقه محبوباً، أولم يكن. وتوهّم به في الظاهر وجهُ الله تعالى، فذلك هو المُرائي. وفيه ما قيل: ﴿كَالَّذِى يُنفِقُ مَالَهُ رِئَـآءَ ٱلنَّاسِ﴾ الآية. (البقرة / ٢٦٢)

(٣) وأمّا الّذي ينفقُ من مال محبوب عنده، لغرض الآخرة والتّقرّب إلىٰ جناب القدس، من غير التفات ولا شركة لأمر دنيويّ، فذلك هو التّصدّق بالحقيقة، الّذي يستحقّ، بسبب ما أنفق، أن يكونَ مرضيّاً بنظر الحقّ ملحوظاً بعين العناية التّامّة.

وهو الّذي قيل فيه : ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ﴾ . ﴿ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَا أَنفَقُواْ مَنًّا وَلَآ أَذًى﴾ ، الآية . وهو المشارُ إليه بقوله تعالىٰ : [﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ . وهو المرادُ بقوله تعالىٰ :] ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا * إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا﴾ .

(٤) وأمّا القسمُ الرابع ـ وهم المنفقون بما ليس بمحبوب لهم ـ فهم المتصدقون . ولهم من الأجر بحسب إمكانهم بالتّقرّب بذلك القُربان وإرادتهم ووصولهم به إلىٰ تمام الرّضوان . ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُواْ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ . (الانعام / ١٣٢)

وذكر الواحديّ في تفسير البسيط والزّمخشريّ في الكشّاف والإماميّةُ أطبقوا علىٰ أنّ السّورة في أهل بيت محمّدﷺ لا سيّما هذه الآي . يُروىٰ عن ابن عبّاس ـ رضي الله عنهما ـ أنّ الحسنَ والحسينَ مرضا معاً ، فعادهُما رسول اللهﷺ في ناس معه . قال : يا أبا الحسن ، لو نذرتَ علىٰ ولديك . فنذر عليّ وفاطمة وفضّة جارية لهما ، إن برآمعاً أن يصوموا ثلاثةَ أيّام . فشفيا ولم يكن معهم شيء . فاستقرض عليّ عليه السلام من شمعون الخيبريّ ثلاثةَ أصواع من شعير . فطحنت فاطمةُ عليها السلام صاعاً . فأخبزت منه خمسةَ أقراص ، فوضعوها بينَ يديهم في اللّيلة الأولىٰ ليُفطروا . فمرّ بهم سائلٌ ، فقال : السّلامُ عليكم أهلَ بيت محمّد؛ مسكينٌ من مساكين المسلمين ، أطعموني ، أطعمكمُ الله من موائد الجنّة ؛ فآثروه وباتوا ولم يذوقوا إلّا الماء ، فأصبحوا صِياماً . ففعلوا في الليلة الثّانية كذلك ؛ فوقف عليهم يتيمٌ ، فآثروه ؛ ووقف عليهم في اللّيلة الثّالثة أسيرٌ ، ففعلوا مثل ذلك .

فلما أصبحوا أخذ أميرُ المؤمنين عليه السلام الحسن والحسين عليهما السلام وأقبلوا إلىٰ رسول اللهﷺ. فلمّا أبصرهم (٢٢) وهم يرتعشون كالفراخ من شِدّة الجوع ، قال : «ما أشدّ ما يَسوءُني ما أرىٰ بكم» . فقام وانطلق معهم ، فرآى فاطمةَ في محرابها قد التصق ظهرُها ببطنها وغارت عيناها ،فساءه ذلك . فنزل جبرئيل عليه السلام ، فقال : خُذها ، يا محمّد! في أهل بيتك . وفي رواية : هَنّأك اللهُ في أهل بيتِك . فقرأ السّورةَ . ويُروىٰ : أنّ السائلَ في اللّيالي الثّلاثة كان جبرئيل ؛ وأراد بذلك ابتلاءهم بإذن الله سبحانه .».

انظر إلىٰ هذه النّفوس الفاضلة و تمكّنها من ترك الغذاء ، تلك المدّة و أكثر منها . ولنُشر إلىٰ سبب ذلك إشارةً خفيّةً ، فنقولُ : إنّ الهيئآتِ البدنيّةَ ربما تُعِدُّ هيئآت في النّفس والنّفسانيّة في البدن ، ويقعُ من كلّ منهما في كلّ أظلالٌ ؛ وإنّ الاشتغال والتّوجّه التّامّ نحوَ وجهة خاصّة معيّنة ربما يمنعُ سائر القوىٰ من اشتغالها . فأيقن بهذا وأيقن به ، ولا تستبعد عن النّفوس الفاضلة الكاملة ، المُقبلة على الله تعالىٰ ، المُعرضة عمّن سوى الله ، المنوّرة بأنواره ، المحيطة أسرارُهم بأسراره ؛ أن لا يعتريهم من ترك المشتهيات الطبيعيّة ألمٌ ، بل ربما فازوا لهذا بلذّات لا تُعدّ ولا تُحصىٰ . وأيُّ استبعاد في أن يكونَ استغراقُ النّفوس في محبّة الله ، وانصرافها عن العلائق الجسمانيّة سبباً لأن ينزل منها إلىٰ القوّة الطبيعيّة هيئآتٌ نفسانيّة ، شاغلةٌ لها عن تحليل الأجزاء الأصليّة ، فلا يؤثّر فيهم ولا يؤلمهم الجوعُ . كيف ويُشاهَدُ الإنسانُ يبقىٰ في المرض مدّةً مديدةً من غير تناول الغذاء .

وأيضاً ، النّفسُ النّاطقةُ إذا رضّت القوى البدنيّة صارت تلك القوىٰ موافقةً لها منجذبة إليها ، سواء احتاجت إلىٰ تلك القوىٰ أولم تحتج ، ثمّ كلّما اشتدّ الانجذابُ انجذبت تلك القوىٰ إلىٰ متابعة النّفس ، فلم تنفرغ لأحوالها ؛ فلا جرمَ تقفُ الأفعالُ الطبيعيّةُ في حقّ السّالكين الواصلين . وإليها أشار بقوله ﷺ : «إنّي أبيتُ عند ربّي يُطعمني ويَسقيني» .

ثمّ إنّ قولهُم : «إنّما نُطعِمُكم لوجهِ الله» ، أي لمرضاته خاصّةً . يجوزُ أن يكونَ منهم باللّسان ونطق المقال ، منعاً للسّائل عن المُجازاة بمثله أو بالشّكر ، ويجوزُ أن يكونَ نُطقَ الحال . قال مُجاهدُ : «إنّهم ما تكلّموا بذلك ، ولكن الله ـ تعالىٰ ـ علم ذلك منهم» .

<۱> تنبيهٌ

إنّ ترك الطعام في أيّام ، يستتبعُ ألماً نفسانيّاً وضعفاً بدنيّاً ، والنّفسُ الزّكيّةُ تتحمّل الأوّل إرادةً لقوّتها ـ لما أشرنا إليه ـ ولأُمور أُخرَ لا يسعُ المقامُ بسطَ الكلام فيه ؛ والثّاني طبيعيّ لازمٌ ظاهرٌ . ومن استغنىٰ عن بدنه لا يُبالي به . (۲۳)

المشرقُ الثّامِنُ

قوله تعالى : ﴿إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْماً عَبُوساً قَمطَرِيراً﴾ (١٠)

يجوزُ أن يكونَ تعليلاً للإطعام وأن يكون تعليلاً لعدم إرادة المجازاة . وفي كلّ بحثٌ . العبوسُ : الشّديدُ . والقمطريرُ : أشدُّ ما يكونُ من الأيّام . وقيل : وصفُ الأيّام بالعبوس مَجازٌ بطريقين . أحدهُما : أنّه شبيهٌ في ضرره وشدّته بالأشدّ العبوس أو بالشّجاع الباسل . والثاني أنّه وصفٌ بصفة أهله من الأشقياء . يروىٰ : «إنّ الكافِرَ يَعبِسُ يومئذ» . وقد بيّنا حقيقتَةَ ذلك اليوم ، فلا نُعيدُهُ . وإنّما كرّره ، لأنّه أُورد في الأوّل بصفة عموم الشرّ وهٰهنا بصفة الشّدّة ؛ أي : لعموم شرّهِ وشدّتهِ نَخافُهُ .

ولا يخفىٰ أنّه لا يلزمُ أن يكونَ إثباتهُم بالخير احترازاً عن الشّرّ علىٰ ما يتبادرُ إلىٰ الأوهام العامّية ؛ فإنّ هذه لا يلزمُ أن تكونَ حكايةً عن حالهم أو مقالهم ، بل يجوزُ أن تكونَ شرحاً لحالهم وكشفاً لوصالهم . فهذا وجهٌ وجيهٌ غيرُ ظاهر في نظر الظاهريّة ، وكشفهُ يحتاجُ إلىٰ بسط في الكلام ولا يسعهُ المقام . مثنوى :

گر نبودى خلق محجوب وكثيف ورنبودى حلقها تنگ و ضعيف

در بيانش داد معنى دادمى غير از اين نطق دگر بگشادمى

امّا : من چه گويم؟ يك رگم هشيار نيست وصف آن يارى ، كه آن را يار نيست

وهٰهنا دقيقة لطيفة هي : أنّ السّالك إلىٰ الله ، إمّا أن يريد الله لله أو لشيء آخر من استكماله به أو معرفته ، أو الالتذاذ بالنّظر إلىٰ وجهه الكريم أو الهرب من عقابه الأليم .

والأوّل هو المُخلِصُ الحقيقيّ . وقيل : إنّه غيرُ ممكن الوجود ؛ والحقّ يأباهُ . وبيانه : أنّ الكمال محبوبٌ لذاته : فكلّما كان الاطّلاعُ علىٰ كمال المعلوم أتمّ كان حبّهُ أشدّ وكان الاستغراقُ به أوفىٰ ، والانقطاعُ عمّا عداه أتمّ . وربّما انتهىٰ ذلك إلىٰ أن يصير السّالكُ غافلاً عن نفسه ، فلا يبقىٰ له شعورٌ إلّا بمحبوبه فقط . والعشقُ

الشّديدُ في الشّاهد يُبيّنُ صدقَ هذه القضايا .

إذا عرفتَ ذلك فنقولُ : إنّ الطالبَ لله إذا وصل في الاستغراق ، إلىٰ حالة الغفلة عن ذاته انفعل عن ذاته ؛ فحينئذ يكونُ حُبُّ استكماله بالله ؛ إذ غيرُ ذلك ممّا عداه غيرُ حاصل له في تلك الحال ؛ لأنّ حبّ الشّيء مشروط بتصوّره ، لكنّه في تلك الحال غافل عن كلّ من سوى الله ، فاستحال أن يكونَ مُحِبّاً لله ، لشيء سواه ، لحصول الشّعور بكمال الله في تلك الحال ، مع أنّ ذلك الشّعور يُوجِبُ الحُبّ .

وأمّا الثاني ، فليس بمُخلِص في الحقيقة ولا يوحّد ؛ لأنّه يريدُ مع الحقّ شيئاً آخر.

إذا عرفتَ ذلك ، فنقول : إنّ هذه الألفاظ المُنزلة في هذه الآية لا تدلُّ في حق الموصوفين بها . على أنّهم (۲۴) ممّن لا يريدُ الله لله . وذلك لأنّ تلك الألفاظ إنّما وردت بياناً وكشفاً لعقائدهم وما هم عليه من الإخلاص وإن لم يقولوا شيئاً منها . فعلىٰ ما آثرناه من التّفسير يكونُ تركُ العطف لكمال الانقطاع والانفصال ، وعلىٰ تفسير سائر المفسّرين يكون لكمال الاتصال ؛ وفيه ما أشرتُ إليه.

ثمّ لمّا كان ذكرُ اليوم وتكريرهُ ووصفهُ بالعبوس وعمومُ الشّرّ أبلغَ في الرّجوع إلىٰ الله من الاقتصار علىٰ قوله تعالىٰ : ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللهِ﴾ في التّكليف الوارد علىٰ من لم يذق حلاوة إرادة الله لله ؛ فإنّ السّلوك في الله ؛ وهو مقامُ التّحلية بالأُمور الوجوديّة الّتي هي النّعوت الإلٰهيّة ، لا يناله الكلّ ولا يصلُ إليه إلّا غائبٌ عن ذاته ، فلا يمكنُ التّعبيرُ عنه بعبارة ، فضلاً عن أن يكونَ الاقتصارُ علىٰ ذكره مُفيداً إفادةً عامّةً ؛ لا جَرَمَ ذكره وكرّره ؛ فإنّهُم كانوا إنّما يريدون الله لله ، لا لطلبِ الثّواب ولا لهربٍ من العقاب والله وليّ الهداية .

<۲> تنبيهٌ

من تأمّل في نظمكلام العليم الحكيم علم وحكم بلطف ما أشرنا إليه من التّفسير.

المشرقُ التّاسعُ

قولهُ تعالىٰ : ﴿فَوَقَـٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ وَلَقَّـٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُوراً﴾ . (١١)

الضّميرُ إشارةٌ إلىٰ من ذكرنا من أقسام السّعداء ؛ فإنّهم لمّا فازوا بالمقاصد الكليّة ووصلوا إلىٰ كمالهم الأوفىٰ هانت علىٰ نفوسهم مفارقةُ أبدانها ، ولم يَحِسّوا بالآلام المحسوسة ، لاشتغالهم واستغراقهم في محبّة الله والتفاتهم إلىٰ مطالعة الأنوار القدسيّة وغفلتهم عن ذواتهم ، حتّىٰ حُكى أنّ الشّيخ شهابَ الدّين السّهروردي ﷺ «لمّا أُمِرَ بقتله لم يضطرب» .

ثمّ لمّا لم يحصل لهُم بسببِ ترك الأبدان شقاوةٌ فكانوا فقدوُقُوا ﴿شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ وَلَقَّـٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُوراً﴾ . والنّضرةُ هي حسنُ الوجه . وأيُّ وجه أحسنُ من وجه يُطالعُ تلك الأنوار الإلٰهيّة اللّطيفة القدسيّة ، متّصلاً بالرّوحانيّين ، مُجاوراً للمُعتكفين في حظيرة الجبروت ، المُطمئنّينَ في غرفات المدينة الرّوحانيّة . ثمّ أيُّ مُشاهدة ألذُّ من تلك المُشاهدة وأتمُّ وأبهجُ من تلك المطالعة . اللّهمّ ارزُقنا إمكاناً تامّاً وأفِض علينا نوراً عامّاً واجذُب قلوبَنا إليك ، ولا تَجعَلنا من المحرومين . بَدّل بنا لما لديك واجعَل ذواتنا من العائذات الفارقات ؛ إنّك وليّ الباقيات الصّالحات.

المشرِقُ العاشِرُ

قوله تعالىٰ : ﴿وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُواْ جَنَّةً وَحَرِيراً﴾ (١٢).

جزاهم بالصّبر على المؤذيات ، من الجُوع والعُرىٰ ، جِناناً ، فيها مأكلٌ هنيٌّ ومشربٌ شهيٌّ ومسكينٌ حَسَنٌ بهيٌّ . والمعتبرُ في المسكن أُمورٌ : المجلس والمضجعُ والهواءُ (٢٥) . ووُصِفَ الأوّلان بقوله : ﴿مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ﴾ ؛ والثّاني بقوله : ﴿لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْساً وَلَا زَمْهَرِيراً﴾ ، لِما سيجيء بيانُه .

أو جزاهم بما صبروا على التكاليف الواردة عليهم وواظبوا على امتثالها حتّىٰ

وصلوا بسببها إلىٰ نيل رضوانه. وإليه الإشارةُ بقوله: ﴿فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِن دِيَـٰرِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَـٰتَلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾، وقوله: ﴿وَالَّذِينَ جَـٰهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾، و﴿وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ﴾ ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا الزَّكَوٰةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

والجنّةُ: إشارةٌ إلىٰ تلك المقاصد الكليّة والمصالح الجليلة السنّيّة.

وأمّا الحريرُ، فلمّا كان من اللّباس الكامل المكمّل حِسّاً، عبّر عنه عمّا يطابقه من الكمالات والمكمّلات العقليّة، من التسربُل بسرابيل الإفاضات الرّوحانيّة. والتّسرول بسراويل الكرامات الرّحمانيّة، والتّعمّم بعموم العمائم بالعناية الرّبانيّة، المحيط بالكلّ حياطَ الحاوي للمحوي وإن كان تفاوتٌ مّا بينَ الحريرين.

المشرقُ الحادي عشر

قوله تعالى: ﴿مُّتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْساً وَلَا زَمْهَرِيراً﴾ (۱۳).

الأرائكُ: جمعُ الأريكة. وهي السّريرُ المتّخذُ في قُبّة أو بيت فيه الحِجال. ومتّكئينَ: منصوبٌ على المدح أو حالٌ. وفي الآية: إشارةٌ إلىٰ حُسن المنزل وطيب هوائه، وتلويحٌ إلىٰ دوام هذا الطيب وعدم تغيّره. وعدمُ الشّمس والزّمهرير: كنايةٌ عن الخلوّ عن الحرّ والبرد. والزّمهريرُ في لغة طيٍّ: القمرُ. فلو حُمِلَ علىٰ هذا كان كنايةً عمّا أشرنا إليه وإن كان على الأوّل أيضاً إشارةً إليه. وعلى الوجهين تلويحٌ إلىٰ أنّ هذا الطيبَ والاعتدال ليس من الأمور الخارجيّة، كاعتدال هواء الدّنيا. وبالجملة، الجنّةُ بيضاءُ معتدلةُ الهواء.

ثمّ في الآية دلالةٌ علىٰ إثباتِ اللّذّة ونفي الألم؛ فإنّ الاتّكاء على السّرير في هواء طيّب معتدل جامعُ الأمرين في البدن. وفي النفس حالاتٌ مُناسبةٌ مُشابهةٌ. والشّمسُ يتبعُها حرٌّ وكربٌ يلزمُ الشّوقَ؛ والزّمهريرُ برودةٌ وجمودةٌ يلزمُ البلادةَ والغفلةَ.

المشرقُ الثّاني عشر

قوله تعالىٰ : ﴿وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَـٰلُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا﴾ . (١٤)

«دانيةً» منصوبٌ علىٰ أنّه حال ، عطفٌ على المتّكئين أو علىٰ محلّ «لا يرون» . فكأنّه قيل : غيرَ رائينَ فيها شَمساً ولا زَمهريراً ، ودانيةً عليهم ظلالُها . وفي الواو دلالةٌ علىٰ جمعيّة الأمرين . فحاصلُ التّفسير حينئذ : أنّ جزاءهم جنّةٌ جامعينَ فيها البُعدَ عن الحرّ والبرد الشّديد ودنّوا الظلال عليهم . ويُحتمَلُ أن يكونَ «دانية» صفةً للجنّة . فحاصلُ التّفسير : جزاؤهُم جنّةٌ دانيةٌ . ويُمكِنُ أن يُجعَلَ صفةً لموصوف (٢٦) محذوف ؛كأنّه قيل : جزاهم بما صبروا جنّة وحريراً وجنةً أُخرىٰ دانيةً عليهم ظِلالُها . وذلك أنّهم وُعِدُوا جنّتين ؛ فإنّهم خافوا . قال الله تعالىٰ : ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ﴾ . وقرئ : «ودانيةٌ بالرّفع ، علىٰ أنّ ظِلالَها مُبتدأ ودانيةٌ خبرٌ . والجملةُ في موضع الحال .

ومن الجَهَلة الطبيعيّة ، من استشكل فقال : الظلّ لا يكونُ إلّا حيثُ يكونُ الشّمسُ وليس هُناك شمسٌ . وأُجيب : بأنّ المراد لوكان هُناك شمسٌ لوقع ظلٌّ .

وأقول : لا مَجال لهذا السّؤال ، بعدَ ما حققنا من المقال ؛ أمّا أوّلاً ، فلِما لا يخفىٰ ؛ وأمّا ثانياً ، فلأنّا لا نُسلّمُ أنّ الظلّ لا يكونُ إلّا حيثُ يكونُ الشّمسُ ، بل الضّوء كاف . وكثيراً مّا يحصل الظلّ بإزاء ضوء أو مُضيء ، وانحصارُ الضّوء والمضيء في الشّمس غيرُ بيّن ولا مُبيّن ؛ وأمّا ثالثاً ، لما أشرنا إليه غيرَ مرّة أوّلاً وآخراً .

وفي تذليل القطوف وجهان : الأوّل ، أن يكونَ إشارةً إلىٰ القصر ، من قولهم : «حائطٌ ذليلٌ» إذاكان قصيرَ السّمك . الثاني أن يكون تلويحاً مليحاً إلىٰ ما روىٰ براءُ بنُ عازب . قال ما معناه : «إنّ أهل الجنة يتناولون من ثمرات الأشجار كيفَ كانوا . فمن كان قائماً يتناولها قائماً ، ومن كان جالساً أو مضطجعاً يتناولهاكذلك».

ثمّ أقولُ : لا يبعدُ أن يكونَ دنوُّ الظّلال إشارةً إلىٰ قُرب الظلّ دونَ المُظلّ ، وتذلّل القُطوف إلىٰ تفاوت المُظلّ ؛ وفي هذا إشارةٌ إلىٰ النّعمة والعناية ؛ وفي الجنّة

العقليّة إشارةٌ إلىٰ شمول العناية الإلهيّة، وتقاربها وإحاطتها مانعةٌ عن الآلام العقليّة والحسّية. والقطوفُ إشارةٌ إلىٰ اللّذات وتعقّل المعقولات، وتذلّلها [إشارةٌ] إلىٰ تقارُبِها بمُفضيها.

ويمكنُ أن يُقال: إنّ دُنُوّ الظّلال لمّا كان من اللّذات البدنيّة الّتي توجدُ للمتّكئين، يُمثّل تلك الجِنانَ من الجِنان الدّنيويّة المحسوسة، عُبّر به عمّا يحصلُ لهٰؤلاء في الجنّة، من سرّ العناية الإلٰهيّة عليهم ودنوّا النّعمة الربّانيّة لهُم، أن لا يُصيبهم ألمٌ أو يجري عليهم شيءٌ من عذاب النّاقصين. وأمّا تذليلُ قُطوفِها عبارةٌ عن تعقّلاتهم لتلك المعقولات المجرّدة واقتناصِهم من تلك الجواهر العقليّة، بحسب إمكاناتهم علىٰ ما يوجبهُ المتخيّلةُ من المناسبة. وتذليلُ قطوفها: تناوُلُها بسرعة. وفيه إشارةٌ لطيفةٌ إلىٰ أنّ المبدأ الأوّل ـ جلّ ذكره ـ لا يتوقفُ إضافةُ وجوده علىٰ شيء من ذاته، وإنّما هو بحسبِ تخلّف استعدادات القوابل.

إذا عرفتَ ذلك فاعلم أنّ هؤلاء لمّا كانوا علىٰ غاية من كمال استعداداتهم وقبولهم لكمالاتهم لا جرمَ كانت قطوفُها علىٰ غاية سرعة الإفاضة. وذلك مَعنىٰ تذلّلها. (٢٧)

المشرقُ الثّالث عشر

قوله تعالى: ﴿وَيُطَافُ عَلَيۡهِم بِـَٔانِيَةٖ مِّن فِضَّةٖ وَأَكۡوَابٖ كَانَتۡ قَوَارِيرَا۠ قَوَارِيرَاْ مِن فِضَّةٖ قَدَّرُوهَا تَقۡدِيرٗا﴾ (١٦).

الكوبُ: قدحٌ لا عُروةَ لهُ، والجمعُ: أكوابٌ. والقواريرُ: معروفةٌ. والمرادُ: أنّ الفضّة لمّا كانت من الجواهر العزيزة، ممّا يتخذُ منه الملوك الأوانيَ من آلات الشُّرب وغيرها، وكان مع ذلك لها البياضُ الّذي هو أشرفُ الألوان المشرقة، عُبّر بها عمّا ناسبها من الجواهر المعقولة.

واعلم أنّه عُبّر بالطواف، عمّا يحصل للنّفوس الكاملة، من تلك المُشاهدة والمُقابلة الّتي تجري مجرى المرايا العالية للمرايا السّافلة. وعُبّر بالآنية والأكواب

عن المبادي العالية الّتي هي مقرُّ العلوم والمعارف ، تنبيهاً علىٰ ذلك.

قوله تعالىٰ : «قدّروها تقديراً» . أي : أشكالاً مختلفةً بالقلّة والكثرة . والمرادُ أنّه حصل لكلّ منهم ، من المعارف والمشاهدات لتلك الصّور البهيّة والمطالع العليّة ، حِصّةٌ بحسب ما انتهىٰ إليه طوقُ إمكانه . أي : قُدّرَ لهُم ـ الطائفين ـ ذلك التّقديرَ المختلفَ بحسب اختلاف إمكاناتهم .

ونبّه بقوله تعالى : «قواريراً قوارير» علىٰ وصفين : أحدُهُما : أنّ تلك الجواهر العقليّة وإن كان لها لونُ الفضّة ؛ فإنّها مع ذلك في صفاء القوارير وشفافها . وهو إشارة إلىٰ براءتها عن كدورات العلائق الجسمانيّة . والثّاني : أنّه ، بتأكيده ، نبّه علىٰ أنّها مقرُّ العلوم الحقيقيّة ، قراراً لا يتبدّلُ ولا يتغيّرُ بحسب تغيّر المعلومات .

فإن قلتَ : الطّائفُ بالحقيقة مغايرٌ لما يُطاف به ، وأنتَ عبّرتَ بما يُطاف به عن المبادى العالية ؛ والطائفون ، أيضاً ، عبارةٌ عن تلك الجواهر ، كما في قوله تعالىٰ : ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ * بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ﴾ . وهذا يقتضى أن يكونَ الطّائفُ غيرَ المُطاف به.

قُلتُ : كشفُ هذا السّرّ يستدعى تطويلاً ؛ إلّا أنّا نقولُ : إنّ الطائفَ هُناك هو بعينه المُطافُ به ؛ وتغاير النّسب لا يوجبُ الكثرةَ . بيان ذلك : أنّ تلك الجواهر العقليّة لمّا كانت مُشاهَدَةً للنّفوس المستكملة الإنسانيّة ، ومُقابلةً لها مُقابلةَ المرايا العالية للمرايا السّافلة ، كانت تلك المرايا العاليةُ ، ذواتُها وما فيها من الموجودات ، مُنتقشةً متصوّرةً بها المرايا السّافلةُ . فالطوافُ والمُطافُ به والطائفُ عبارةٌ عن معنىً واحدٍ ، وإن كانت الاعتباراتُ بسبب الطواف والطائف والمُطاف به متغايرةً .

ثمّ أقولُ ، من رأس : المبادي العاليةُ أنوارٌ متعدّدة متكثّرة ، مترتّبة ، لها إظلالٌ . فإشراقُها على النّفوس إظلالُها ، واستفاضةُ النّفوس منها اقتطافُها . وبهذا الّذي لمّحنا تظهرُ وجوهٌ وجيهة حسنة بديعة من التّفسير ، وتظهرُ نكتةٌ بهيّة إلٰهيّة (٢٨) في نسبة الدّنوّ إلىٰ الظّلال ، والتّذلل إلىٰ القطوف ؛ ووجهٌ وجيهٌ في تغاير الطائف والمُطاف به ؛ فإنّ بعضَ تلك المبادي طائفٌ وبعضَها مُطافٌ به ، مشبّهٌ بأكواب كانت قواريراً

قوارير من فضّة .

وفي «كانت» لطفٌ لطيفٌ ، تنبّه له . وضيقُ الوقت يمنعني عن الإطالة . والحرُّ يكفيه الإشارةُ ، وفي الإشارة كفايةٌ . علىٰ أنّه يمكنُ أن يُرادَ بالأكواب والقوارير : المقدّماتُ . وفي التّفسير ، عن المقدّمات ، بالأكواب والقوارير لطفٌ لطيفٌ .

ثمّ نقولُ : لا يخفىٰ علىٰ أُولي النُّهىٰ : أنّ في الآية أُموراً ينبغي الاستكشافُ عنها : منها : كيفيّةُ كونُ هذه الأكواب من الفضّة والقارورة ، وهما جوهران متباينان . ومنها : تبيينُ فاعل التّقدير . ومنها وجهُ التّأكيد . ومنها : وجهُ إعادة المصدر.

(١) أمّا أوّلاً ؛ فيمكنُ أن يُبيّنَ بوجوه :

أوّلُها ، أنّ قوارير الدّنيا مأخوذةٌ من الرّمل والحجر ، وقارورةَ الجنّة مأخوذةٌ من الفضّة.فكما أنّ الله ـ تعالىٰ ـ قادرٌ علىٰ تقليب الرّمل والحجر زجاجةً صافيةً،كذلك قادرٌ علىٰ تقليبالفضّة قارورةً لطيفةً.ففي الآية إشارةٌ إلىٰ أنّ نسبةَ قارورة الجنّة إلىٰ قارورة الدّنياكنسبة فضّة الجنّة إلىٰ حجارة الدّنيا . وبهذا يُتفطنُ بصفاء قارورة الجنّة ولطائفها.

وثانيها ، أنّ كمال الفضّة في نقائها وبقائها وصفائها وشرفها ، إلّا أنّـها كـثيفةُ الجوهر ؛ وكمال القارورة في شفافها وصفائها ، إلّا أنّها سريعةُ الانكسـار . والآيـةُ إشارةٌ إلىٰ أنّ آنية الجنّة جامعةٌ بينَ صفاء الفضّة ونقائها وبقائها ، وصفاء الزّجاجة ولطفها وشفافها.

وثالثُها ، أن تكونَ إشارةً إلىٰ أنّ تـلك الآنـيةَ مـن الفـضّة ولكـن يكـونُ لهـا صفاء الزّجاجة.

ورابعُها : أنّ القارورة فـي الآيـة ليس بـمعنى الزّجـاجة ، بـل العـرب يُسـمّي كلّ ما استدار من الأوانى قارورةً ، سيّما وقد رقّ وصفا.

فحاصلُ التّفسير ، أنّ الطوافَ بأكواب من فضّة مستديرة صافية رقيقة . ولنا أن نتفطنَ بهذا علىٰ أسرار لا يَكشِفُ عنها الأستارُ. والله أعلمُ بسرائر الأسرار . ولقـد لمّحنا إلىٰ كلمة بهيّة إلهيّة مُناسبة لهذا في بعض رسائلنا ، يتفطنُ بها من هو أهلُها .

(٢) وأمّا الثّاني ـ وهو بيانُ المقدّر ـ ففيه وجهان. الأوّل أنّه هو الطائفُ. والثّاني أنّه هو الشّاربُ. ولكلّ وجهٌ وجيهٌ، بل وجوهٌ وجيهةٌ.

(٣) وأمّا الثّالثُ؛ فلا يخفىٰ علىٰ من تفطّنَ بالأوّل. (٤) كما أنّ الرّابعَ ظاهرٌ لمن تأمّل في الثّاني. وقيل: الضّميرُ في «قدّروها» عائدٌ إلىٰ عباد الله، الموصوفين بالصّفات السّابقة. والمعنىٰ علىٰ هذا الوجه: أنّهم لمّا كانوا أسباباً قابلةً، لهم حظّ في نسبة تقدير تلك التعقّلات إليهم. وقرئ: «قُدّروها»، بالبناء (٢٩) للمفعول، والمعنىٰ قريبٌ من الأوّل.

المشرق الرّابع عشر

قوله تعالىٰ: ﴿وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْساً كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلاً﴾. (١٧)

الكأسُ هٰهنا: هي الأوّل بعينِها. وإنّما أُورد هٰهُنا، بصفة المزاج بالزّنجبيل، لأنّ الزّنجبيلَ ما يستلذّهُ العربُ ويَضرِبُ به المثل في أشعاره. قال الأعشىٰ:

كأنّ القَرَنفُلَ وَالزّنجَبيلا باتا بفيها وأريا مَشوراً

والموادُ: المبالغةُ في تعريف اللّذّة العقليّة بإيراد كلّ مُستلذّ به حِسّاً.

ثمّ لا يخفىٰ علىٰ أُولي النُّهىٰ: أنّه ـ تعالىٰ ـ وَصَفَ مشروبَ هؤلاء، تارةً بمزاج الكافور وأُخرىٰ بمزاج الزّنجبيل، وهما مُختلفان مُتباينان. وفي هذا سرٌّ، بل أسرارٌ. وأنا أكشفُ منها شيئاً، فأقولُ: إنّ هٰؤلاء الأبرار الأخيار كثيرةٌ مختلفةٌ ذواتاً وأحوالاً وصِفاتاً. فلكلّ بكلّ حال شِربٌ ومشربٌ يليقُ به بحسب حاله. فلشرابهم تارةً مزاجُ الكافور وأُخرىٰ مزاجُ الزّنجبيل، بل لكلّ شراب في كلّ نشأةٍ نَشوةٌ. فإذا كان له مزاجُ الزّنجبيل المُشهّي كان شربُه مُشهّياً مُستدعياً لمشرب ومعطم آخر. فشبّه الفيوضَ المستدعيةَ لفيوض أُخَر بالشّراب الممزوج بالزّنجبيل؛ والّتي لم يتبعها شوقٌ وأفاد برداً وطمأنينةً بالممتزج بالكافور. فتفطّن بهذا تجد سِرّاً من النّشوة والسّرور.

<۱> سِرٌّ سَرِيٌّ

الشّرابُ: المشروبُ من العين بعينه، بما يُزيلُ بحدّته فضولَ الطبيعة، كان مزاجهُ زنجبيلاً؛ وبما يُفيدُ بردَ اليقين وطمأنينةً كان مزاجهُ كافوراً. تفطّن له؛ فإنّه سرٌّ فيه أسرارٌ.

المشرق الخامس عشر

قوله تعالى: ﴿عَيْناً فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلاً﴾ (۱۸).

السّلسبيلُ والسّلسل والسّلسالُ والسَّلِسُ: سريعُ الجريان في الحلق. والمرادُ من العين هٰهُنا أيضاً هو العينُ السّابقةُ؛ إلّا أنّه أورده هٰهنا بصفة السّلاسة وسرعة الفيض الإلهيّ في حقّهم، وسهولة اقتناص المقلولات عليهم؛ إذ كانوا علىٰ غاية من الإمكان. ثمّ لمّا وصفَ الكأس بطعم الزّنجبيل، وكانت الكأسُ من تلك العين، نبّه في وصف العين بسلاسة الجريان في الحلق، علىٰ أنّها مع استلزامها لطعم الزّنجبيل ليس فيه قوّةُ اللّذاعة الّتي فيه. فسُبحانَ المُلهِمِ لتلك الاستعارة والهادي لتحرير تلك العبارة.

المشرقُ السّادس عشر

قوله تعالىٰ: ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤاً مَنْثُوراً﴾ (۱۹).

المرادُ بالطواف: ما ذكرناه. والولدانُ: عبارةٌ عن العقول الفعّالة المجرّدة.

والتّخليدُ: إشارة إلىٰ دوام كلّ منهم بدوام علّته، وذلك ظاهرٌ. وإنّما شبّههُم باللّؤلؤ المنثور؛ لأنّهُ (۳۰) على اللّون الأشرف مع الصّفاء وعزّة الجوهر. وأيضاً في المنظوم خللٌ ليس في المنثور. والمناسبة حاصلة، لما أشرنا إليه. وأمّا التّنثّرُ؛ فلتفاوتِ مراتبهم كان الوصفُ بالانتثار أولىٰ من النّظم.

فإن قلتَ: الحسبانُ من باب الظنّ والمعارف يومئذ جليّةٌ، علميّة، عارية عن شوب الظنون؛ فكيف يكونُ ذلك؟

قلتُ : المرادُ بقوله : «إذا رأيتَهم» : إذا كنتَ في نفس كاملة ، لها ملكةُ الاتصال بعالمها . وهي في هذا البدن ، وحصل لتلك النّفس انتعاشٌ بما في العالم العِلويّ ، ووصل إلىٰ عالم الحسّ والتّخيّل علىٰ كيفيّة سنذكرها ؛ فربما يَحصلُ فيها علىٰ صور اللّؤلؤ المنثور محسوسةً وكان ذلك حُسباناً وإن كان العقلُ يحكمُ بتجرّدها إلّا أنّ المتخيّلة تُصوّرُها بتلك الصّور ، فتظنُّ أنّها تلك الصّورُ أو قريبٌ منها . والجلائل المقدّسة أجلّ ممّا عندنا وأعلىٰ .

المشرقُ السّابع عشر

قوله تعالىٰ : ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيماً وَمُلْكاً كَبِيراً﴾ (٢٠).

«ثَمَّ» ، إشارةٌ إلىٰ الجهة العقليّة الّتي هي الأرضُ المقدّسةُ . والمرادُ : أنّك إذا وصلتَ إلىٰ ذلك المكان لاح لك جميعُ ما ذكرناه ، من النّعم الأزليّ الأبديّ ، مع نعيم وخيرات لا تطّلعُ عليها مادُمتَ في هذا البدن . وإليه أشار بقوله : «أعددتُ لعبادي الصّالحين ما لا عينٌ رأت ولا أُذُنٌ سَمِعَت ولا خَطَرَ علىٰ قلبِ بشر».

والمُلك الكبيرُ : إشارةٌ إلىٰ كون العالم منظوماً بنظام العناية الإلٰهيّة المنطبقة علىٰ كلّ كلّيّ وجزئيّ لا يتأخّرُ متقدّم ولا يتقدّم متأخّرٌ . كلٌّ موقوفٌ علىٰ سببه ومنوطٌ بوقته ومعلّقٌ علىٰ شرطه . «لا يَستقدمون ساعةً ولا يَستأخرون» . وإليه أشار بقوله : ﴿وَالْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ .

فذلك المُلكُ هو المُلكُ الحقُّ وما عداه مُضمحلّ باطل . ﴿لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَىٰ وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (من القصص : ٧٠).

المشرقُ الثّامن عشر

قوله تعالىٰ : ﴿عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَاباً طَهُوراً﴾ (٢١) .

«عاليهمُ» نصبٌ على الحال من ضمير في «يطوفُ عليهم». والسّندسُ والإستبرقُ نوعان من الثّياب. وذكر صفة الخضرة لأنّه من الألوان المُشرقة الّتي تمدّ الرّوحَ. ويُحتمل أن يكونَ لأنّ أشرفَ تلك الثّياب ماكان بهذه الصّفة. والمرادُ من تلك، الإشارةُ إلىٰ ما حصل لهم من لباس الكرامة الإلٰهيّة الّتي أحلّتهُم تلك المَحالّ والمبالغةُ في التّعبير عن تلك اللذّات لكلّ مكمّل حِسّاً. وقد ذكرنا طرفاً من ذلك.

وكذلك قوله تعالىٰ: «وحلّوا أساور من فضّة». وفي موضع آخر: «من ذهب» إشارةٌ إلىٰ تحليلة معاصم نفوسهم (۲۱) بأسورة الصّور القُدسيّة. فكما أنّ المَعاصِمَ تزيّنُ وتُحسّنُ بالأسورة منها ويكون ذلك من كمالاتها، فكذلك النّفوسُ بتلك الصُّور. وفُرقانٌ مّا بينَ الحِليتين.

وقوله تعالى: «وسقاهم ربّهم شراباً طهوراً»، قد سبق منّا معاني المراد بالشّراب غيرَ مرّة. وإنّما أورده هٰهُنا بزيادة صفة الطهور. والمرادُ من تلك الصّفة أنّه طاهرٌ في نفسه وإن أُطلق عليه اسمُ الخمر، مُطهِّرٌ لمن شربه. وأيُّ طاهر أبعدُ عن شائبة النّجاسة من تلك الأنوار المُبرّأة عن نجاسة الوهم والخيال. ثمّ أيّ مُطهّر أبلغُ في غَسل دَرَن السّفليّات من ماء ينبوع الحياة.

المشرقُ التّاسع عشر

قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ هَـٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُوراً﴾، (۲۲).

يريدُ: أنّ النّعمةَ الّتي أُفيضُها عليكم هي بحسب سعيكم، أي حركاتكم الحسّيّة والعقليّة في تحصيلها. والشّكرُ من الله يرجعُ في النّظر إلىٰ علمه باستحقاقهم لما وهب لهم، واللهُ أعلمُ.

المشرقُ العشرون

قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْءَانَ تَنزِيلاً﴾، (۲۳).

التّنزيلُ إشارةٌ إلىٰ الوحي . ولنبيّنْ كيفيّةَ ذلك علىٰ ما يقتضيه قواعدُ الفلسفة ، فنقول : إنّ النّفوسَ الكاملةَ إذا نظرن إلىٰ جانب القُدس فربما وقعت لها خلساتٌ وفلتاتٌ ؛ فتتنقّشُ بنقش غيبيّ من هُناك . ثمّ إنّ القوّة المتخيّلة تتوجّهُ إلىٰ تشنيج المعنى العقليّ في صور جزئيّة . والمُحرّكُ لها حينئذ أمران :

أحدُهُما : أنّه يزولُ عنها الكلالُ والملالُ بسبب الرّاحة في التفات النّفس فيعودُ إلىٰ ما يقتضى طباعُها من التّشنيج والتّلويح .

وثانيهما : أنّ النّفس تستعينُ بها وتستخدمُها ، فنزلت تلك الصّورُ الجزئيّة مُناسبةً لذلك المعنى الكلّيّ وتحفظه إلىٰ الخيال ، فيُسلّط الخيال على الحسّ المشترك ، فيُرتسمُ فيه صورةٌ علىٰ غاية الحُسن والزّينة ؛ فيكونُ حينئذ مُشاهَداً ، ويحصل لها حينئذ إبصارُ صورة أو سماعُ كلام . حتّىٰ كانﷺ يري جبرئيل في صورة دحيةَ الكلبيّ ؛ إذكان من أحسن النّاس وجهاً وأجملها صورةً وكان يسمعُ الوحيَ منه . وكذلك سائرُ الأنبياء.

والوحيُ الصّريحُ من ذلك ماكانَ مضبوطاً في الذُّكر والخيال ضبطاً محفوظاً مستقرّاً . فهذه حقيقةُ ذلك الإنزال على الاختصار .

ولهذا البحث مواضعُ مُستوفىٰ فيها . من أرادها طالعها . هذا علىٰ رأي الحكماء . وأمّا على المذهب المنصور فالأمر واضحٌ بيّنٌ من غير قصور.

واعلم أنّ في هذه الآية التفاتاً إلىٰ خطاب الرّسولﷺ . وتأكيدِ الضّمير بالضّمير ، والإنزال ، بأن ذُكِرَ بالفعل أوّلاً وبالمصدر ثانياً ، إشارةٌ مليحةٌ إلىٰ ردّ وهم الفلاسفة ، و إلىٰ أنّ التّكاليفَ الواردةَ علىٰ لسانهِ منسوبةٌ إلىٰ الفاعل الأوّل ـ جلّ ذكره ـ وتفريعٌ لأوهام المكلفين (٣٢) بتقرير ذلك عليهم لئلّا يتقاصروا ولا يتكاسلوا عن القيام بتلك التّكاليف بينَ الجهادين الأصغر والأكبر . وكثيراً ما يُخاطبُ رئيسُ القوم بالخطاب العامّ لهُم . وذلك كثيرٌ في التّنزيل.

المشرقُ الحادي والعشرون

قوله تعالىٰ : ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِماً أَوْ كَفُوراً * وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا * وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلاً﴾ (۲۴ ـ ۲۶).

شرع الآنَ في الحثّ على الصّبر وتوطين النّفس علىٰ أحكـامه ، أولاً ؛ ثـمّ عـلى الانزجار عن الطّاعة لغيره ثانياً؛ثمّ على المواظبة على العبادات بحسب التفصيل ثالثاً.

الامرُ الأوّل ، إشارةٌ إلىٰ الحثّ إلىٰ الاصطبار على الأحكام الإلٰهيّة الواردة على النّفس بحسب قواها النّظرية والعمليّة.

و[الأمرُ] الثانيّ ، نهيٌ عن التعدّي إلىٰ ما عداه من مُطاوعة الأوهام الّتي سوّلتها الشّياطينُ . وعلّته غالباً كلالٌ وملالٌ يحصلُ في القوىٰ ، فيصرفُ النّفسَ عن الطاعة ويتصرّفُ فيها ، متقرّباً إلىٰ إطاعة من يُبعّدُها عن الطاعة والعبادة ويُعِدُّها ويُمِدُّها بمُشتهيات الهوىٰ الحسّيّة . ولهذا السّرّ أمرَ بالتّعوّذ من الشّيطان الرجيم . قال : ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْءَانَ فَاسْتَعِذْ بِاللهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ ، وقال : ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْاْ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا﴾ . والآثِم : إشارةٌ إلىٰ مُطيع النّفس الأمّارة بـاطناً ويُـظهِرُ خِـلافَها ، ويكونُ ذلك لِروادع . وهؤلاء هم الفّساقُ شـرعاً . و«الكـفورُ» إشـارةٌ إلىٰ الكـافر المطيع لها ظاهراً وباطناً.

و[الأمر] الثّالث،حثٌّ علىٰ أنواع من العبادات بحسب التّفصيل. وذكر منها ثلاثة:

الأوّل ، ذكرُ الله بكرةً وأصيلاً . وهو مقدّمٌ علىٰ كلّ عبادة ؛ لأنّ العبادةَ وُضِعَت طلباً لله تعالىٰ وتوسّلاً إلىٰ نيل معرفته ، بحسبِ الإمكان ؛ وكـان التّـصوّرُ بـحسب الاسم هو أوّلُ مراتبِ التّصوّر حينئذ طبعاً ، لا جـرمَ بـدأ بـذكره وضـعاً . وأمّـا أنّ العبادةَ وُضِعت لذلك فظاهرٌ . ومن وجوه إفادته لشيء من ذلك : أنّ النّفسَ تكونُ في أوّل الرّياضةَ قليلةَ الالتفات إلىٰ الجانب الأعـلىٰ ، فـاحتاج إلىٰ سببٍ يُـذكّرُها ويُوجِبُ التفاتَها إلىٰ ذكـر ذلك الجـناب فـوُضِعَتِ العـباداتُ . ثـمّ أجلُّها العـبادةُ المشعوفةُ بالفكر ؛ لكونه السّببَ الموصلَ إلىٰ المقصود ، وبدونه لا تفيدُ العِـبادةُ .

قالﷺ : «إنّ الله لا ينظرُ إلىٰ صوركم وأعمالكم ولكن ينظر إلىٰ قلوبكم» .

الثّاني ؛ الأمرُ بالسّجود في الليل . واعلم أنّ الصّلاةَ هي أفضلُ الأعمال البدنيّة . يُنبّهُك علىٰ ذلك أنه قد كرّر فيها ما يُوجبُ التّوجّه إلىٰ المقصد الأقصىٰ ، وهو اسم الله الأعلىٰ . ثمّ وُضِعَت فيها حركاتٌ وسكناتٌ علىٰ هيئآت مخصوصة جرت العادةُ بالإقدام بها بينَ يدي الملوك ، تقويةً للتقيّد (٣٣) وتأكيداً للتوجّه.

الثّالثُ ، التّسبيح في أكثر اللّيل . وذلك من جملة مُتمّمات الصلاة ، من الأشياء الّتي يتمُّ بها الغرضُ الّذي وُضِعت تلك العبادةُ لأجله ، فأرد فها بها.

وأمّا كونها بالليل ، أفضلُ من وجوه : الأوّل ، أنّ الالتفاتَ فيه إلى الجانب العلويّ أتمُّ ؛ لأنّ اشتغالَ الحواسّ بحركات الخلق وأصواتهم بالنّهار مانعٌ عن الالتفات ، بخلاف اللّيل ؛ فإنّ الحواسّ فيه متوفّرةٌ على العبادة ، خاليةٌ عن المشاغل الدنيويّة . فكان أفضلَ . الثّانيَ ، أنّ الخشوع والتّقيّد فيه أوفىٰ . ولهذا وجهٌ لا يخفىٰ سرُّهُ ، مع ظهوره مستورٌ إلّا على العرفاء ، ولا يتأتّىٰ إظهارهُ إلّا بكلام لا يسعُهُ المقامُ . الثّالثُ ، أنّه أبعدُ من الرّياء ؛ لأنّ الاستتارَ عن أعين الخلق فيه حاصل . فقلّما يقصدُ طالبهُ به الرّياءُ ، بخلاف النّهار ، حيثُ تكونُ العبادةُ بمشاهدة الخلق ، فكان أفضل.

المشرقُ الثّاني والعشرون

قوله تعالىٰ : ﴿إِنَّ هَـٰٓؤُلَآءِ يُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمْ يَوْماً ثَقِيلاً﴾ (٢٧).

هذه إشارةٌ إلىٰ النّفس المقهورة في أيدي شياطينها ، وهي المسترسلةُ في طاعة القُوى البدنيّة ، المُعبّر عنها بالنّفس الأمّارة ، كقوّة الوهم والخيال وغيرهما . والعاجلة هي الحياةُ الدّنيا وزينتُها واللذّاتُ الحاضرة الحسّيّة ، أي : يُولّون وجوهَهُم شطرَها ويُعرِضُونَ عن القبلة الحقيقيّة ، ولا تلتفتُ نفوسُهُم إلىٰ ما يحصلُ لها ، من ضرورة الموت وما بعدها ، من العذاب الموعود ، بسببِ ذلك الإعراض «ويذرون وراءهم يوماً ثقيلاً» ، وثقلهُ : شِدّتُهُ .

المشرقُ الثّالث والعشرون

قوله تعالىٰ: ﴿نَّحْنُ خَلَقْنَـٰهُمْ وَشَدَدْنَآ أَسْرَهُمْ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَآ أَمْثَـٰلَهُمْ تَبْدِيلاً﴾ (۲۸).

ذلك إشارةٌ منه إلىٰ أنّه المبدأ الأوّل لكلّ مخلوق. وشدُّ الأسر من الوثاق. والمرادُ أنّ أزمّةَ أُمورهم وحركاتهم بيده؛ وهو مبدؤها ومصدرُها، وهي مستندةٌ إليه ومشدودةٌ في أسر علمه، الّذي هو نظامُ كلّ موجودات كليّها وجزئيّها. وإذا كانوا كذلك لم نكن عاجزينَ عن تبديله لو شِئنا. وفي ذلك تنبيهٌ علىٰ أنّ القدرةَ المتعلّقة لمن عداه متلاشيةٌ في جنب قدرته، مُنمحيةٌ بالنّسبة إلىٰ عظمته.

وهٰهنا دقيقةٌ. وهي أنّ ملازمةَ هذه الشّرطية ممّا لا شكّ فيها. وذلك أنّه إذا تعلّق عملهُ، الّذي هو نظامُ الكلّ على الوجه الأتمّ، بشيء مع تمام إمكانه، ففعلهُ واجبٌ عنه؛ لكنّ تلك الملازمةَ وإن صدقت فلا يلزمُ صدقُ جزئي الشّرطيّة، حتّىٰ يلزمَ أنّه شاء، فبدّل لأمثالهُم، والله الموفّق.

المشرقُ الرابعُ والعشرون

قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ هَـٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلاً﴾ (۲۹).

هذه اشارةٌ إلىٰ كلّ ما تقدّم من أصناف الوعد والوعيد (۳۴) وغير ذلك ممّا اشتملت عليه هذه السّورةُ. ونعم التّذكرةُ تلك؛ فإنّ في تصفّحها فوائد للعاقلين، وفي تدبّرها فرائدَ جمّةً للطالبين السّالكين. ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ (ق، ۳۷). نفسهُ مُقبلةٌ بوجهها علىٰ ما التفت إليه سمعَها. فقد ذكرنا للسّالكين ما أعددنا، وذكرنا للّذين لم يسلكوا، وآتيناهم من الآيات والهوىٰ، ما إن سلكوا معها السّبيل لم يضلّوا. فمن ساقه قلمُ التّقديرُ بإرادة جازمة يُفضي بها إلىٰ سلوك سُنَن من الطرق المُوصِلَةِ إلينا ـ سلكها.

المشرقُ الخامسُ والعشرون

قوله تعالىٰ : ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيماً حَكِيماً﴾ (٣٠).

هذه إشارة إلىٰ القضاء الإلهيّ ؛ وهو كونُ الإرادة في العبد موقوفةً على استعداده لها ، مُفاضةً عليه بحسبِ إمكانه ، وليست من قِبل العبد ، دفعاً للتّسلسل والدّور ، علىٰ ما يُعلمُ في غير هذا الموضع.

قولهُ تعالى : «إنّ الله كان عليماً حكيماً» تحقيقٌ لعلمه بكلّ الموجودات علىٰ أتمّ الوجوه وأكملها . أمّا الأُمور الكليّة فبالذّات . وأمّا الجزئيّة فعلى الوجه الكلّيّ .

وبيانهُ ـ علىٰ ما قرّره بعضُ العلماء من رأي الحكماء ـ أنّ (١) من الإدراكات ما يتعلّق بزمان أو مكان ، وإنّما يكونُ الإدراكُ من ذلك المُدرِك بآلة جسمانيّة . وذلك المُدرِكُ للتغييرات الحاضرة في زمانه ويحكمُ بوجودها ويفوته ما يكونُ في غير هذا الزّمان ويحكمُ بعدمه ويُخبرُ عنه بـ «كان» و«سيكونُ» و«ليس هو الآن» ، ويدركُ المتكثرات الّتي يُمكنهُ أن يُشيرَ إليها بأنّها هُنا أو هُناك.

و (٢) منها ما لا يكون كذلك . ويكونُ ذلك الإدراكُ إدراكاً تامّاً مُبرّءاً عن التّعلّق بالزّمان والمكان ، ويكونُ المُدرِكُ بذلك الإدراك مُحيطاً بالكلّ ، عالماً بأنّ أيّ حادث يُوجَدُ في أيّ زمان من الأزمنة وفي أيّ مكان من الأمكنة ، ولم يتفاوت بينَه وبينَ سائر الحوادث المتقدّمة عليه والمتأخّرة عنه ، من المدّة والمسافة ؛ ولا يحكم بالعدم علىٰ شيء من ذلك ، بل يحكمُ بأنّ كلّ موجود في زمانٍ لا يوجدُ في غيره ؛ كما أنّ الأوّل يحكمُ بأنّ الماضي ليس بموجود الآن . وكذلك يعلمُ تعلّقَ كلّ شخص بجزء من المكان وبالتّفاوت الّذي بينه وبين غيره في الجهات على الوجه المطابق لما عليه الشّيء موجوداً ، أو لا يحكمُ بوجود شيء الآن ولا عدمه ، أو وجوده هناك أو عدمه أو غيبته أو حضوره ؛ لأنّه ليس بزمانيّ ولا مكانيّ ، بل نسبةُ جميع الأزمنة والأمكنة إليه نسبةٌ واحدةٌ .

فعلمهُ بجميع الموجودات أتمُ العلوم وأكملُها . وهذا معنى العلم بالجزئيّات على الوجه الكليّ ، ولا يمكنُ الإدراكُ علىٰ هذا الوجه إلّا لمن يكونُ ذاتهُ بريئةً

عن الزّمان والمكان ويُدرِكُ لا بآلة ولا بتوسّط صورة . فلا يمكنُ حينئذ أن يكونَ شيءٌ من الأشياء، كلّيّاً كان أو جزئيّاً ، علىٰ أيّ وجه كان إلّا وهو عالمٌ به . ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَـٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَـٰبٍ مُّبِينٍ﴾ (الأنعام ، ۵۹).[1]

وقوله تعالى : «حكيماً» إشارةٌ إلىٰ إيجاد كلّ الموجودات ـ علىٰ أحكم وجه وأتقنة وجذب كلّ ناقص منها من مبدئه إلىٰ كماله جذباً مُلائماً له . وفي المقام كلامٌ فوق هذا ، أشرنا إليه في رسائل أُخرىٰ .

المشرقُ السّادس والعشرون

قوله تعالى : ﴿يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِي رَحْمَتِهِ وَ ٱلظَّـٰلِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَاباً أَلِيماً﴾ (۳۱).

«يُدخِلُ» ، من أقضى القضاء الإلٰهيّ ، إشارةٌ إلىٰ طريق الحقّ ورشده بالوصول إلىٰ الكمال الحقيقيّ في رحمته ، فيهبُ له من السّعادة الحقيقيّة بحسب إمكان ما أوجبوا لأنفسهم .

والظّالمين : المانعون لحق الله أن يَصِلَ إلىٰ مُستحقّه ، المُنتكِسونَ في ظلمات الأبدان ، أعدّ لهُم من العذاب الأليم ، بحسب استحقاقهم ، وتمكّن تلك الملكاتِ الرّديّة في نفوسهم ، ما أعدّ . ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللهُ لَهُ نُوراً فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ﴾ [النور / ۴۰] .

اللّهمّ، يا واهبَ الحياة حيّاً ، ويا مالك الرّقاب رقّاً ، ببابك عبدٌ تطفّل علىٰ كرمك رجاءً لقبول توبته ، وقصداً إلىٰ عفوك طلباً لمحو خطيئته ؛ فلا تُرجِعهُ من رَوحك بيدٍ صِفر بعدَ أوبته ؛ ولا تُدخِلهُ في زُمرة الظالمين بسيّئته ؛ وهب له من لدنك رحمةً وهيىء له من أمره رَشَداً.

قد تمّ كتابة تفسير سورة الإنسان في يوم الاثنين ، التّاسع من شهر ربيع الآخر سنة تسعين وتسع مأة ، ۹۹۰ ، الهجريّة .

---

۱. مُستفادٌ من شرح مسألة العلم للطوسي، ص ۳۹ـ ۴۰، حققهُ الشيخ عبدالله النوراني، مطبعة جامعة المشهد، ۱۳۸۵ق ـ ۱۳۴۵ش.

<٢>

رسالة في تفسير قوله تعالى «أفلا يتدبّرون القرآن»

بسم الله الرحمن الرحيم

وعليك الإعانة يا كريم

العلماء قالوا: دلالةُ القرآن علىٰ صدق نبيّنا محمّد ـ عليه وآله السّلام ـ من ثلاثةَ أوجُه: الأوّل الفَصاحةُ، الثّاني اشتمالُه على الإخبار عن الغُيوب، الثّالث سلامتهُ عن الاختلاف. وهذا هو المذكور في هذه الآية. وذكروا في تفسر السّلامة ثلاثةَ أوجُهٍ.

الأوّل، قال أبو بكر الأصمُّ: «معناه: أنّ هؤلاء المُنافقين يتواطئون في السّرّ علىٰ أنواع كثيرة من المكر والكيد، والله تعالىٰ كان يُطلِعُ الرّسولَ علىٰ تلك الأحوال حالاً فحالاً، ويُخبِرُهُ عنها علىٰ سبيل التّفصيل، وما كانوا يجدون في ذلك إلّا الصّدقَ. فقيل لهُم: إنّ ذلك لو لم يَحصُل بإخبار الله تعالىٰ لما اطّرد الصّدقُ ولظهر في قول محمّد أنواعُ التّفاوت والاختلاف. فلمّا لم يظهر علمنا أنّه ليسَ إلّا بإعلام الله تعالى».

الثّاني، وهو الّذي ذَهَبَ إليه أكثرُ المتكلّمين، أنّ المرادَ أنّ القُرآن كتابٌ كبيرٌ مُشتملٌ علىٰ أنواع كثيرة من العُلوم. فلو كانَ من عند غير الله لوقع فيه أنواعٌ من الكلمات المُتناقضة؛ لأنّ الكتابَ الكبيرَ الطويلَ، لا ينفكُّ عن ذلك.

فإن قيل: فيه أمورٌ مُتناقضةٌ.

قلنا: قد شرحنا في هذا التّفسير أنّهُ لا تناقُضَ.

الثّالثُ، ما ذكره أبو مُسلم الإصفهانيّ. وهو أنّ المرادَ منه الاختلافُ في

مرتبة الفَصاحة حتىٰ لا يكونَ في حلية ما يُعَدُّ في الكلام الرّكيك، بل بقيت الفَصاحةُ من أوّله إلىٰ آخره علىٰ نَهج واحد. ومن المعلوم أنّ الإنسانَ وإن كان في غاية البلاغة ونهاية الفَصاحة، فإذا كتب كتاباً طويلاً مُشتملاً على المعاني الكثيرة، فلابُدّ أن يَظهرَ التّفاوتُ في كلامه بحيثُ يكونُ بعضُه متيناً وبعضُه سخيفاً نازلاً، فلمّا لم يكن القُرآنُ كذلك، علمنا أنّه مُعجِزٌ من عند الله». انتهىٰ كلام الإمام ومقالته بعبارته. وما رأيت أحداً من المفسّرين زاد علىٰ ما أفاد شيئاً.

ولا يَبعُدُ أن يكونَ مُرادُ الله تعالىٰ من الآية تفسيراً آخرَ غَيرَ ما ذكر؛ فإنّ المذكورَ لا يخلو عن مُناقشة وقُصور.

أمّا الأوّلُ، فلأنّ الأصَمَّ كأنّهُ لم يَسمَع أولم يتدبّر قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ [النساء، ۸۲]؛ فإن الإخبارَ عن جميع مكائد المُنافقين في القُرآن مَحلُّ مُناقَشَة، بل الواردُ أنّ النبيﷺ اطّلع عليها بإخباره تعالىٰ. وأمّا أنّ هذا كُلّهُ في القُرآن فلم يُرد.

وأمّا الثاني، فلأنّ لزومَ التّناقُض في كُلّ كلام منسوبٍ إلىٰ الغير غيرُ مُسلّم، سيّما ويتراءىٰ تناقُضاتٌ يمكنُ دفعُها.

وأمّا الثّالثُ، فلأنّ لزومَ التّفاوت الكثير بلاغةً في كُلّ كلام طويل محلُّ مُناقشة. ولعلّه لا يثبتُ بهذا القدر الإعجازُ، على ما ادّعاه، علىٰ أنّ [كون] عدم الاختلاف بلاغةً غيرُ ظاهر، كيف والعلماء اتّفقوا على اختلاف مراتب البلاغة منه. وإن أراد أنّهُ لم يخرج عن حَدّ الاعجاز لم ينفعهُ الاختلافُ، فإنّه حينئذ يكونُ الإعجازُ دليلاً، لا عدمُ الاختلاف؛ علىٰ أنّ الكثرةَ ليس لها حَدٌّ محدودٌ. وبيانُ عدم الكثرة لا يخلو عن صُعُوبة. هذا.

ويمكنُ أن يُفَسّرَ الآيةُ بوجوه أُخَر:

منها: أنّه إذا ادّعىٰ أحدٌ دعوىً، وتزاحم المُنكرون المُعاندون المُخاصِمون مُصِرّين علىٰ إنكار دعوته، وأتى المُدّعى بكلام يُثبِتها، فجميعُ هٰؤلاء

يتوجّهون إلىٰ كلامه ويقصدون ويجتهدون رَدّهُ ودَفعهُ وإبطالهُ بما يقدرونَ عليه بوجه لا يثبتُ به الدّعوىٰ. وظاهرٌ أنّه ينشأ من هذا اختلافاتٌ كثيرة شَتّىٰ: منها في اللّفظ، ومنها في المعنى، ومنها في إثباته الدّعوىٰ، وقد كثر الكلامُ واختلف المرامُ.

ثمّ أنّ نبيّنا ـ عليه الصّلاة والسّلام ـ حيثُ أتىٰ بالقُرآن أعجزَ الكُلّ في الكُلّ، فلم يتنازعوا ولم يختلفوا إلّا قليلاً وصاروا بهذا عاجزاً ذليلاً. فكان هذا دليلاً علىٰ أنّه من عند الله، لصَرفهِ عزائمَهُم أو سلبهِ قُواهُم، ولهذا يُرىٰ في كلام بعض العلماء: أنّ الإعجازَ للصّرفة.

ومنها: أنّه يمكنُ أن يُرادَ بعدم الاختلاف الكثير عدمُ امتداد زمان الاختلاف، وهذا خلافُ العادة في المُخاصمة.

ومنها: أنّ الّذي يُخاصِمُ مُصِرّاً في المُخاصمة ربما يظهرُ لهُ حَقيّةُ كلام مَن يُخاصِمُهُ ويتظاهرُ عليه؛ وحينئذ، مع أنّهُ في صدد المُخاصَمة، لا يجدُ من نفسه لغلبة الحقّ عليه رُخصَةً في الخِلاف الكثير. فليس لهُم خِلافٌ قلبيّ حيثُ قلّب مُقلّبُ القُلوبُ قُلوبَهُم من غير أن يعرفوا وجهَ القلب. [مجلس]: كتبه الفقير، [پايان]. [آستان قدس]: تمّ ما أفاده قُدوةُ الحكماء المُحققين، صفوة العلماء المدققين، أُستاد أعاظم المفسّرين والمحدّثين، إسناد أفاخم المتفقّهين والمُتشرّعين، زُبدةُ أشراف السّادة وعُمدة أعيان أرباب السّعادة، غياثُ أهل الحقّ واليقين، منصوراً لإغاثة الملهوفين ـ خلّد الله تعالىٰ ظلّ عواطفه وإحسانه علىٰ مَفارق المؤمنين ـ في تفسير قول الله المتين ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَـٰفاً كَثِيراً﴾. [النساء / ٨٢] وصلّى الله وسلّم علىٰ محمّد وآله تسليماً جسيماً كثيراً.

<۳>

فى تفسير الحروف المعجمة في أوائل السور

بسم الله الرحمن الرحيم

وبه نستعين

الرّسالة الثّانية من الجملة الثّانية من مطلع العرفان لبيان معارف التبيان

ممّا ألّفه الفقير الحقير غياث المشهور بمنصور في تفسير الحروف المعجمة الواردة في أوائل السّور.

بسم الله الرحمن الرحيم افتتحُ وبلطفه العميم أستنجحُ

اعلم أنّ لأرباب التّفسير في المُقَطّعات الّتي افتتح بها بعضُ السُّور قولان: أحدُهُما أنّه عِلمٌ مستورٌ وسِرٌّ محجوبٌ، وثانيهما أنّ المقصودَ منها معلومٌ، والمرادُ بها مفهومٌ. ثمّ اختلف هؤلاء علىٰ أقوال متعددة.

وتلك الوجوهُ، علىٰ ما عثرتُ عليها ورأيتُها في كلام الأعلام، نَيِّفٌ وعِشرونَ.

الأوّل: أنّها أسماءٌ للسُّور. وهو قولُ أكثر المتكلّمين، واختاره خليلٌ وسيبويه.

الثّاني: أنُها أسماءُ الله تعالىٰ. روي أنّ عليّاً، على النبيّ وعليه الصّلاة والسّلام، كان يقولُ: «ياكٓهٰيٰعص، يا حٰم عسق». ويقربُ منه ما روي عن سعيد بن جبير: «أنّها أبعاضُ أسماء الله تعالى». فإنّ «ألٓر حم ن» مجموعُها الرّحمٰنُ. لكنّا لا نقدرُ علىٰ كيفيّة التّركيب في الجميع.

الثّالث: أنّها أسماءُ للقُرآن. وهو قولُ الكلبيّ والسُّدّيّ وقَتادة.

الرّابع: أنّ كُلَّ واحد من تلك الحُروف دالّ على اسم من أسمائه أو صفة من

صفاته . [وفي ألٰم] فالألفُ : إشارةٌ إلىٰ أنهُ أحَدٌ أوّلُ آخِرٌ أزليّ أبَديٌّ ، واللامُ : إلىٰ أنهُ لطيفٌ ، والميمُ : إلىٰ أنّه مَجيدٌ مَلِكٌ مَنّانٌ .

وفي كهيعص : الكافُ كافٍ لِعباده ، والهاء هادي ، والياء من العليم ، والعين عالمٌ ، والصّاد صادقٌ ، والكاف كبيرٌ كريمٌ ، والياء إشارة إلىٰ أنّه يخبر ، والعين إلىٰ العِزّة والعَدل.

ويُروىٰ هٰذا عن ابن عبّاس ، رضي الله عنهُما : إنّ «الٓم» تفسيرُه : أنا اللهُ أعلَمُ . وتفسيرُ «المص» : أنا اللهُ أعلَمُ وأفضَلُ . وفُسّر «الٓمر» بـ«أنا اللهُ أعلَمُ وأرىٰ» .

الخامِسُ : أنّها صفاتُ الأفعال : الألفُ آلاؤُه ، واللّامُ لُطفُه ، والميمُ مَجدهُ . وإليه ذهب محمّد بنُ كعب القُرطبيُّ .

السّادس : الألفُ من الله ، واللّامُ من جبرئيل ، والميمُ من محمّد، أي : أنزل اللهُ الكِتابَ بواسطةِ جبرئيلَ إلىٰ محمّد.

السّابعُ : الألِفُ أنا ، واللّام لي ، والميم منّي .كذا ذكره بعضُ الصّوفية .

الثّامِن : أنّ ورودها مسرودة هكذا علىٰ نمط التّعديد ، ليكونَ كالاتّعاظ وقرع العصا لمن تحدّىٰ بالقُرآن . أي : إنّ هذا المتلوّ عليهم وقد عجزوا عنه عن آخرِهم كلامٌ [٩٠ ب] منظومٌ من عين ما ينظمون منه كلامهُم . فلولا أنّهُ كلامُ خالق القدر لم تعجز نفس البشر عن الإتيان بمثل الكوثر . قاله المُبرّد وجَمّ غفيرٌ .

التّاسِعُ : أنّها استيناسٌ ، فكأنّ الله تعالىٰ يقولُ : اسمَعُوا مُقطّعهُ حتّىٰ إذا وردت عليكم مُؤلّفَهُ كنتُم قد عرفتُموها قبلَ هذا ؛ علىٰ طريقةِ تعليم الصّبيان .كذا ذكره عبدُ العزيز بن يحيىٰ .

العاشِرُ أنّ الكُفّارَ قالوا «لا تسمعُوا لهذا القُرآن والغَوا فيه» [فصلت / ٢٤] . فأنزل اللهُ تعالىٰ هذه الأحرُفَ رَغبةً في إصغائهم ليهجمَ عليهم القُرآنُ من حيثُ

لا يشعرونَ . قاله الفرزدق وقطرب .

الحادي عشر قول أبي العالية : إنّه حِسابٌ ، علىٰ ما روىٰ ابن عبّاس : أنّه مرّ أبو ياسر بن أخطَب برسول الله ﷺ وهو يتلو سورةَ البقرة : « الٓمٓ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ» . ثمّ أتىٰ أخوهُ حيَّ ابن أخطب وكعب بن الأشرف، فسألوا عن «ألم» وقالوا: إنّها أتتك من السّماء؟ فقال ﷺ : نعَم ، كذلك نزلت . فقال حيّ : إن كنتَ صادقاً ، إنّي أعلَمُ أجَلَ هذه الأُمّةِ من السّنين . ثمّ قال : كيف ندخلُ في دين رَجُل دلّت هذه الحُروفُ بحِساب الجُمَّل علىٰ أنّ مُنتهىٰ أمده إحدىٰ وسَبعُونَ سَنَةً . فضَحِكَ رسولُ الله ﷺ فقال : حَيّ: فهل غيرُ ذلك؟ فقال: نَعَم «المص» فقال حَيّ: مائة وإحدىٰ وسِتّون ، فهل غيرُ هذا؟ فقال : نَعم، «الر»، فقال حيّ : لا ندرى بأيّ أقوالك نأخُذُ ، قال أبو ياسر : أمّا أنا فأشهَدُ أنّ أنبياءنا قد أخبَرُوا عن مُلكِ هذه الأُمّة ولم يُوقِنُوا أنّها كم تكونُ ، فإن كان محمّدٌ صادقاً فيما يقولهُ إنّي لأراهُ يستجمعُ هذه كلّه . فقام اليهودُ وقالوا : اشتبه علينا أمرُكَ . فأنزل اللهُ تعالىٰ : ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ﴾ [آل‌عمران/۷]

الثاني عشر : أنّها للدلالة على انقطاع كلام واستيناف آخَر .

الثّالث عشر : قول الأخفَش إنّ الله أقسَمَ بهذه الحُروف المُعجَمةَ لِشَرفها من حيثُ إنّها أصولُ اللّغات ، بها يتعارفون ويذكرون دينهُ ويُوحّدونهُ ، واقتصر على البعض . والمُرادُ الكُلُّ . كما تقول : قرأتُ الحمدَ ، ويُرادُ به السّورةُ كُلّها . أقسم بها أنّ هذا الكتابَ هو المُثبتُ في اللّوح المحفوظ .

الرّابع عشر : أنّ النُّطقَ بالحُروف أنفُسِها كانت العربُ فيه مُستوية الأقلام والأُميّون وأهل [۹۱ ظ] الخطّ والكِتاب خلاف النُّطق بأسامي الحُروف . فإنّه كانَ مُختصّاً بمن خطّ وقرأ . فلمّا أخبر الرّسول بها من غير تعلُّم خَطّ وقراءة ، كان دليلاً علىٰ أنّهُ استفاد من قِبَل الوحي .

الخامس عشر : قال القاضي الماورديُّ : «الم» لكم ذلك الكتابُ أي نزوله .

ولا يخفىٰ أنّ هذا لا يتأتّىٰ في كُلّ فاتحة .

السّادس عشر : الألِفُ إشارة إلىٰ ما لابُدّ منه من الاستقامة على الشّريعة في أوّل الأمر ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُواْ ﴾ [الاحقاف / ١٣] . واللّام إلىٰ الحاصِل عند المُجاهدات ، وهو رعايةُ الطّريق . ﴿ وَٱلَّذِينَ جَـٰهَدُواْ فِينَا ﴾ [العنكبوت / ٦٩] والميم إلىٰ صَيرورة العَبد في مَقام المَحبّة كالدّائرة الّتي يكونُ نهايتُها عَينَ بِدايتها ، وهو الفَناءُ في الله بالكُلّيّة . ﴿ قُلِ ٱللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ ﴾ [الأنعام / ٩١] .

السّابع عشر : الألفُ من أقصى الحَلق ، والميمُ من طَرَف اللّسان ، وهو وَسَط المخارج ، والميم من الشّفَه ، وهو أوّلُ المخارج ، أي أوّل ذكر العبد ووَسَطه وآخرِه ، لا ينبغي إلّا لله .

الثّامن عشر : كُلّ واحِد من هذه الحُروف يدلُّ علىٰ فعل من أفعاله ، فالألفُ معناه : ألّف الله محمّداً فابتعثه نَبيّاً . واللّامُ : لامهُ الجاحدون . والميمُ ، أي : منعهُ الكافرون. التاسع عشر : روى أبو الجوزا عن ابن عباس إنّ هذه الحُروف بها أثنى اللهُ علىٰ نَفسِهِ . العشرون : قال أبو بكر الزّهريّ : إنّ الله تعالىٰ علم أنّ طائفةً من هذه الأُمّة يقولُ بقِدَم القُرآن ، فذكر هذه الحُروفَ تنبيهاً علىٰ أنّ كلامهُ مُؤلّفٌ من هذه الحُروف ، فلا يكون قديماً . الحادي والعشرون : قيل : معناهُ ﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ﴾ ، [الاعراف / ١٧٢] الألف واللّام من أوّله والميم من آخِره . الثاني والعشرون : قال بعضهم : إنّها للإشارة إلىٰ قولك : «نَصٌّ حكيمٌ قاطعٌ ، لَهُ سِرٌّ» . فإنّ بعدَ حذف المكرّرات يحصلُ هذا التّركيبُ . والثالث والعشرون : قال بعضُ الشّيعة : يَحصُلُ بعدَ حَذف المُكرّرات : «صِراطٌ عَليٍّ حَقٌّ نُمسِكُهُ» . الرابع والعشرون : قيل : إنّها للإشارة إلىٰ أقسام الحُروف وأصنافها واتّصافها من المهموسة والمجهورة والرّخوة والشّديدة والمُنخفضة والمُستعلية والقلقلة وغير ذلك . هذا تمامُ كلام الأقوام ، وهنُ في كُلّها لا يخفىٰ علىٰ ذوي الأفهام.

الخامس والعشرون : إنّ الرّئيس أباعليّ بن سينا فسرّ هذه الحُروف المُقطّعة

تـفسيراً مُـناسِباً لكـلامه ، مُـرافِـقاً لحُكـمه وأحكـامه . وبـعض المُـتأخّرين أراد تحصيله فأُحصّلهُ علىٰ ما حَصّله ، ومُلخّصُ كلامه ومُحصّل مرامه عـلىٰ مـا أُحـصّلهُ ما أُفصّلهُ فأقولُ :

إنّه رأى الموجوداتِ مُرتّبةً ، أوّلُها الأوّلُ الحَقُّ تعالىٰ ، ثمّ العَقل ، ثمّ النّفس ، ثمّ الطّبيعة ، ثمّ الهيولى . وكُلّ من الأربعة [۹۱ ب] السّابقة يُعبّرُ بوجهين . الأوّل باعتبار ذاته ، والثاني باعتبار نسبته إلىٰ ما دونه . فالحُروف الدالّة على الآحاد وهي تِسعة : من أ إلىٰ ط إشارة إلىٰ تلك الموجودات الخمسة المُرتّبة ، ثمانية مـنها إشـارة إلىٰ الأربعة الأُوَل باعتبارين والتّاسعة إلىٰ الخاصّة وهي الهيولىٰ . وذلك أنّ «اَ» إشارة إلىٰ الأوّل تعالىٰ ، و«ب» إلىٰ العقل باعتبار ذاته ، و«ح» إلىٰ النّفس نـظراً إلىٰ ذاتـها ، و«د» إلىٰ الطّبيعة بذاتها ، ثمّ «هـ» إلىٰ الأوّل باعتبار نظره إلىٰ مادونه ، و«و» إلىٰ العقل نظراً إلىٰ مادونه ، و«ز» إلىٰ النّفس باعتبار اعتبارها نظراً إلىٰ مادُونَها ، و«ح» إلىٰ الطّبيعة كذلك ، و«ط» إلىٰ الهيولى ، كما مضىٰ .

ثمّ لمّا كان الإبداعُ من الأوّل نَظَراً إلىٰ الثّاني غير مُضاف ، وهو دونهُ . ناسَبَ أن يكونَ «ى» إشارة إليه . فانّه حاصل من ضرب هـ في ب . والأمرُ من الأوّل نظراً إلىٰ الثاني مُضافاً كان «ل» الحاصل من ضرب «هـ» في «و» إشارة إليه. والخَلقُ مـن الأوّل نظراً إلىٰ الرّابع وهو الطّبيعة كان «م» الحاصل من ضرب «هـ» في «ح» إشارةً إليها مُضافة . وإذا لم يكن الطّبيعة مُضافة كان «ك» إشارةً إليها ، ومجموع نسبتَي الأمر والخلق ، أعني الخلق بواسطة الأمر ، مُشاراً إليه بحرف «ع» الحاصل من جمع «ل» و «م» ، وجمع الخلق والتكوين س وجمع الأمر والتكوين هـ ومجموع الأمر والخلق والتكوين وهي ل م ك حلسه وهذا المجموع مع الإبداع أعني ى ف .

وإذا تقرر ذلك فنقول : «الم» قَسمٌ بالأوّل ذي الخلق والأمـر و«المـر» قَسَـمٌ بالأوّل ذي الأمر والخلق خالِق النّفس وجاعِلها مُتصرفاً . و«المص» قَسَمٌ بـالأوّل الآمِر الخالِق المُشّيِء للكُلّ . و«ص» قَسَمٌ بالأمر والخلق والتّكوين . و«ق» قَسَـمٌ

بهذه مع الإبداع . و«كهيعص» قَسَمٌ بالنّسبة الّتي للكاف ، أعني التكوين إلىٰ المبدأ الأوّل بنسبة ى ، ثمّ الخلقُ بواسطة الإبداع صادراً بوقوع الإضافة بسبب النّسبة أمراً وهو «ع» ثمّ التكوينُ بواسِطة الأمر والخلق وهو حلسه ص ك و ه ، ضرورة نسبة الإبداع ، ثمّ نسبةُ الخلق والأمر ، ثمّ نسبة التّكوين والخلق والأمر . و«يس» قَسَمٌ بالفيض والإبداع ، وحم قَسَمٌ بالعالم الطّبيعيّ الواقع في الخلق . و«حم عسق» قَسَمٌ بمدلول واسطة الخلق في وجود العالم الطّبيعيّ بالخلق بينه وبين الأمر بنسبة الخالِق إلىٰ الأمر ونسبة الخَلق إلىٰ التكوين بأن يأخُذَ هذا ويُؤدّي إلىٰ ذلك [٩٢ ظ] قَسم به الإبداع الكُلّي المُشتمل على العوالم كُلّها ، فإنّها إذا أُخذت على الإجمال لم يكن لها نسبة إلىٰ الأوّل غير الإبداع الكُلّي الّذي يدلّ عليه ق . وطس ، قَسَمٌ بالعالم الهيولانيّ الواقع في التّكوين و ن لعالم التّكوين وعالم الأمر وليس للحُروف دلالةٌ غير هذه.

السّادس والعشرون : إنّ الشّيخَ المُكاشِفَ ،كمال الدّين ، أبو سالم ، محمّد بن طلحة بن محمّد النّفيسيّ ، حكي أنّ الشّيخَ سعدَ بن سعيد النّصيبيّ أتاه آتٍ ، فأعطاه لَوحاً بهذه الصُّورة فقال : خُذهُ ، فأخذتهُ ونظرتُ فيه وحفظتهُ بصُورَتهِ وما عرفتُ معناه . وكان ذلك في أواسط ليل من ليالي شهور سنةَ أربعينَ وستّمائة الهجريّة ، ثمّ بقرب الصّباح رأيتُ أميرَ المؤمنين عليّ بن أبي طالب ـ عليه الصّلاةُ والسّلام ـ في الواقعة ، فقال : أينَ اللّوحُ الّذي أوتيتَهُ ؟ فأعطيتُهُ ، ونظر فيه واستعظمهُ . ثمّ قال لي : في معناه أشياء ، فقُلتُ : يا أميرَ المؤمنين ، عليك السّلام ، ما فهمتُ شيئاً . فقالﷺ : إنّ كمالَ الدين أبو سالم محمّد بن طلحة بن محمّد النّفيسيّ يشرحهُ إن شاء الله . فلمّا أخبرني بهذا وأعطاني صورَة الدّائرة سُرِرتُ فنظرتُ فيها وظهر لي أسرارٌ . وهذه صورَةُ الدّائرة ، بعضُ مطلوبك فيه من أسرار الاسم الأعظم :

الّذين كذبوا بالكتاب وبما أرسلنا به رُسُلَنا فسوفَ يعلمون . تبصرة وذكرىٰ لكلّ عبد منيب . وما توفيقي إلّا بالله ، عليه توكّلتُ ، وهو حسبي ونعم الوكيل ، لا قوّة إلّا بالله العليّ العظيم ، ربّنا آتِنا من لدنك رحمةً وهَيّء لنا من أمرنا رَشَداً .

ومَن يتوكّل على الله فهو حَسبُهُ.

استُخرجَ من هذا اللّوح أُمورٌ. منها: أنّ الله هو الاسمُ الأعظمُ، ومنها أنّ «الم» يدلُّ على الاسم الأعظم. ومنها: أنّ الأسماء الحُسنىٰ الّتي من أحصاها دخل الجنّةَ تسعة وتسعون. و«الم» يدلُّ عليه. ومنها: الحوادثُ والوقائعُ في المِلّة من أوّل الهِجرة إلىٰ سَنةِ سبع مائة، ومنها: وقتُ انقراض العالم ومُدّة بقاء الدّنيا ـ وهو علىٰ ما حسبه وحاسبه بحسابه تسع مائة وتسعون. وقال: يدلّ عليه «الم».

ولمّا كان شرحُ هذا مُحتاجاً إلىٰ تفصيل يُؤدّي إلىٰ إملال وتطويل خارج عن طوق هذا المُختصر، أعرضنا عن إيراده، والله أعلمُ بمراده.

وأقولُ: من بدائعِ الأسرار الّتي سنحت لى، بناءً علىٰ قواعد الجَفر، أنّه علىٰ تقدير تقرير ما قرّرهُ وحسبهُ وحاسبهُ من مُدّة بقاء الدّنيا بعد الهِجرة أنّهُ إذا رُدّ مآتُ تلك المدّة إلىٰ العَشَرات وعَشراتُها إلىٰ الآحاد، حصل تسعةٌ وتسعونَ، وهو عددُ الأسماء الحُسنىٰ. فإذا قُسِمَت المُدّةُ على العِدّة خرجت عَشَرةٌ. فكُلُّ عشرَ سِنين مُدّةُ دولة، وله اسمٌ واحدٌ من تلك الأسماء وزيادة ظُهور آثاره. وهذا سِرٌّ تحتهُ أسرارٌ شتّىٰ، ومن لاحظ الأسماء الحُسنىٰ بمَعانيها ونِظامها وانتظامِها، تجلّىٰ وبداله كثيرٌ من الحنايا والخفايا. هذا تمامُ كلام الأقوام في المرام، ولا يخفىٰ ما في كُلّ من تمويهات الأوهام. والأشبَهُ أنّ شيئاً منها غيرُ تمام. ولقد سنح لي بأنوار هداية الله تعالىٰ وجوهٌ وجيهةٌ لا عليها غُبارٌ ولا يُقالُ فيها عِثارٌ، والحقيقُ بالتّصديق ما سيُتلىٰ عليكَ التّحقيقُ. تمّ، تمّ

<٤>

تفسير آية الاسراء

بسم الله الرحمن الرحيم

بعدَ حمدِ الله الّذي بعث عبدهُ رَسُولاً اعتلىٰ بمَعارجه السّماء، فدنىٰ فتدلّىٰ، فكان قابَ قَوسين أو أدنىٰ. والصّلاةُ والسّلامُ عليه وآله العُرفاء وأوليائه الأولياء. يقولُ الفقيرُ غياثٌ المشهورُ بمنصور: إنّ هذه رسالةٌ من رسائل مطلع العرفان الّتي نظّمتها ورصّفتُها تفسيراً لآياتٍ من القُرآن الكريم والفُرقان العظيم. وفي هذه الرّسالة تفسيرُ آيةٍ كريمة من سورة بني إسرائيل، وهي سورة إسراء؛ وهي قولهُ تعالىٰ: ﴿سُبْحَـٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَـٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَـٰتِنَآ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الاسراء، ١]. فيها إبانةٌ لحَقيّة المِعراج الجِسمانيّ وأنّه في اليَقظة بلا تأويل. فلنُرتّبِ الرّسالةَ علىٰ مُقدّمةٍ مُفسّرةٍ للآيةِ، وأربع أبواب.

البابُ الأوّل بيانُ الإمكان. البابُ الثّاني ردُّ شُبَهِ المُنكرين وإزالة استبعادِ المُستبعدين. البابُ الثّالثُ تقريرُ الوقوع وأنّ النبيّ ﷺ عرج وصعد إلىٰ فوق السّماوات السّبعة بجسمه الطاهر وبدنه الظاهر. البابُ الرّابعُ في أنه ﷺ رأىٰ ما رأىٰ بالرُّؤيا الظّاهرة وأدرك ما أدرك من الحقائق العقليّة بالرُّؤية الباطنة، وأنّ كُلَّ ما أدرك وأحسّ برُؤيته أدرك حقيقتَهُ الحقّةَ الحقّيةَ برُؤيته.

المُقَدّمَةُ

فيهما فصلان. أوّلهُما تفسيرُ الآية، وثانيهما روايةُ حكاية المعراج ونقل أحاديث رويت في هذا الباب

الفصلُ الأوّل

<تفسيرُ الآية>

قال اللهُ تبارك وتعالىٰ: ﴿ سُبْحَـٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَـٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَـٰتِنَآ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ [الاسراء / ۱].

««سُبحانَ» : اسمُ عَلَم للتسبيح، وتسبيحُ الله تنزيهُهُ وتبعيدُهُ عن كُلّ سوء. فتفسيرُ «سبحان الله» أنّ الله ـ تعالىٰ ـ مُنزّهٌ عن كُلّ سوء. والّذي أرىٰ غيرَ بعيد في تفسير هذه الآية: أنّهُ لا بُعدَ ولا سُوءَ في هذا الإسراء. ثمّ أرىٰ وَجهاً آخَر، هو أنّهُ يَرىٰ أنّ من رأى مُستبعداً بعيداً في الظّاهر، يقولُ: سبحانَ الله. وذلك معروف مُتعارف عُرفاً وعادةً يعرفُ من يعرفُ. ولعلّه يُريدُ أنّ الحقّ مُنزّهٌ عن إرادة غير الحقّ بإيماء إلىٰ أنّ المُستبعد البعيد بعيدٌ عن عجزه، قريبٌ من قُدرته وقُوّته. قال أهلُ اللّغة: أسرىٰ وسرىٰ لُغتان، معناهُما الذّهابُ باللّيل. والعَبدُ بإتّفاق المُفسّرين محمّدٌ النبيُّ الأوحديُّ ﷺ وليلاً: منصوبٌ على الظّرف.

أفاد الإمامُ الرّازيّ ﵀: «إن قيل: الإسراءُ لا يكونُ إلّا باللّيل.فما معنىَ ذكرُ اللّيل؟ قُلنا: أراد بلفظ التّنكير بعده مُدّةَ الإسراء وأنّهُ أُسرِيَ في بعض اللّيل من مكّةَ إلىٰ الشّام مُسيرةَ أربعينَ ليلةً. وذلك أنّ التّنكيرَ فيه قد دلّ علىٰ معنى البعضيّة ،كالثّلث ونحوه».

ولي فيما أفاده شُبَهٌ، منها: أنّه يُفيدُ بعضيّةَ ليلة من اللّيالي. وفي إفادتهِ البعضيّةَ من ليلة واحدة مُناقشةٌ لا تخفىٰ. منها: أنّ إفادةَ هذا تعليلَ مُدّة الإسراء محلُّ تأمُّل. ومنها: أنّ السّائل سأل عن وجه إعادته اللّيلَ المُستفادَ من الإسراء. والجوابُ: بأنّ تنكيرَ اللّيل يُفيدُ فائدةً لا يُفيد. ويمكنُ أن يُقالَ: لعلّه أراد إفادةَ فائدة التّنكير

ويتأتّىٰ هذا بإعادة اللّيل صريحاً وإيراده مُنكراً .

ثمّ أقولُ : غيرُ بعيد ، بل قريب أنّه كأنّه ظرف مفعول مُطلق بغير لفظه لم يُصرَّح به لنكتة . فمُؤدّى التّفسير : أنّهُ سُبحانَ الّذي أذهب عبدَهُ إذهاباً ليلاً كريماً . فلم يُصرّح بالإذهاب وأُقيم اللّيل مقامهُ تصريحاً بأنّ المقصود نوعيّةُ اللّيل وكرامته ، لا نوعيّةُ الإذهاب .

ولا يذهبُ عليك : أنّ إفادةَ هذا كرامةَ الإذهاب أجَلُّ وأجلىٰ . وتوضيحُ هذا : أنّ المفعول المُطلق إمّا للتأكيد أو النّوع : أو العدد . فإذا قصد هذا من مُتعلّقه أُقيم مقامهُ تصريحاً لهذا وعدمُ الذّهاب إلىٰ تنويع الذّهاب والتّنبيه عليه . ولعلّ هذا أولىٰ من التّجريد وإنّ فيه ما فيه . وإن جوّز أن يكونَ التأكيد بالتّكرير مُفيداً لما أُفيد [ظ] لم يحتج إلىٰ التّصريح بعدم التّصريح فتصيرُ المُدّةُ مُكوّناً بالمسير من المسجد الحرام إلىٰ المسجد الأقصىٰ ومنه إلىٰ السّماوات العُلىٰ ليرىٰ ما رأى .

وفسّر المُفسّرون البركة بالأشجار والأثمار ومنازل الأنبياء والآيات من هذه البركات ورأى بعد رُؤيتهما . وأنا أرىٰ أنّها هي الإسراء نفسهُ وما يتبعهُ من البركات.

واختلف المُفسّرون في اللّيلة : فقال مُقاتلٌ : إنّها قبلَ الهجرة بسنةٍ . ونقل صاحب الكشّاف عن أنس : إنّها قبلَ البعثة . وبين المُحدّثين في زمان المِعراج اختلافٌ . فقيل : هو ليلةُ الثّالث عشر من ربيع الأوّل . وقيل : ليلةُ العشرين من رمضان مع اتّفاقهم علىٰ أنّهُ كان قبلَ الهجرة بعدَ البعثة .

ولهُم أيضاً في المكان اختلافٌ وأنّهُ من أيّ مكان أُسرِيَ . فقيل : هو المسجدُ نفسهُ ، وهو ظاهرٌ من عبارة القُرآن . وروي عنهﷺ ، أنّه قال : «بينا أنا في المسجد الحرام في البيت عند الحَجَر بينَ النّائم واليَقظان إذ أتاني جبرئيلعليه السلام بالبُراق» .

وقيل : «أُسري من دار أُمّ هاني بنت أبي طالب» . فعلىٰ هذا يكونُ المُرادُ من المسجد الحرام . رُوي عن ابن عبّاس : «أنّ الحَرَمَ كُلّهُ مسجد» . والمسجدُ الأقصىٰ ، علىٰ ما اتّفق عليه النُّقول ، بيتُ المَقدِس . والآيات هي الأمارات الدّالّة علىٰ قدرة الله تعالىٰ . فالمرئيُّ ما في بيت المَقدِس والسّماوات .

وأقولُ : هي بظاهرها وباطنها الإسراءُ . وأفاد الإمامُ كسائر المُفسّرين : «أنّ السّميعَ البصيرَ هو الّذي أسرىٰ بعبده ، فإنّه السّميعُ لأقوال محمّد، البصيرُ بأفعاله ، العالمُ بكونها مُهذّبةً خالصةً عن شوائب الرّيا ، مقروناً بالصّدق والصّفا . ولهذا خصّهُ اللهُ تعالىٰ بهذه الكرامات . وقيل : سميعٌ بما يقولونَ للرسول في هذا الإسراء بصيرٌ بما يعملون في هذه الواقعة» انتهىٰ .

وفي كلّ من التّكلّف ما لا يخفىٰ . وأنا أرىٰ أنّه غيرُ بعيد أن يُريدَ القريبَ ، وهو العبد ليُفيد الإسراء والإرادة للسارى . ولو أُريد المُسرىٰ أمكن التّفسير بوجه آخرَ .

الفصل الثّاني

في رواية حكاية المعراج علىٰ ما رويته وسمعته. وذلك روايات

الرّوايةُ الأولىٰ

روى «أنّ نبيّ اللهﷺ ، حدّث أصحابه ، عن ليلة أُسرِيَ به ، بينما أنا في الحطيم ـ وربما يُقالُ في الحِجر ـ مُضطَجِعاً إذ أتاني آتٍ فشقّ ما بين هذه إلىٰ هذه ـ يعني من شعرة نحره إلىٰ شعرته ـ فاستخرجَ قلبي ثمّ أُتيتُ بطَشت من ذَهَب مملوّ إيماناً فَغسَلَ قلبي ثمّ حمى ثمّ اعيد . وفي رواية ؛ ثمّ غَسَلَ البطن بماء زمزم ، ثمّ ملى إيماناً وحكمةً . ثمّ أتيتُ بدابّةٍ دونَ البغل وفوق الحمار أبيضَ ، يقال له البُراقُ ، يَضَعُ خُطوةً عند أقصىٰ طرفه ، فحُمِلتُ عليه .

فانطلق بي جبرئيل حتّىٰ أتى السّماء الدنيا فاستفتح قبلُ : مَن هذا . قال : جبرئيلُ . قيل : ومَن مَعَك ، قال : محمّد. قيل : وقد أُرسل إليه. قال : نعم . قيل : مَرحباً بِهِ . فنعمَ المجيء جاء . ففتح ، فلمّا خلصتُ ، إذا يوسفُ . قال : هذا يوسفُ . فسَلّم عليه ، فسلّمتُ عليه ، فردّ السّلامَ . ثمّ قال : مَرحباً بالأخ الصّالح والنبيّ الصّالح.

ثمّ صعد بي إلى السّماء الرّابعة . فاستفتح . قيل : مَن هذا؟ قال : جبرئيل . قيل : ومن معك؟ قال : محمّد. قيل : وقد أُرسل إليه؟ قال : نعم . قيل : مَرحباً به . فنعم المجيء جاء ، ففتح . فلمّا خلصتُ ، فإذا إدريسُ . فقال : هذا إدريسُ ، فسلّم عليه ،

فسلّمتُ عليه ، فردّ . ثمّ قال : مَرحباً بالأخ الصّالح والنّبيّ الصّالح.

ثمّ صعد [٢١ ظ] حتّىٰ أتى السّماء الخامسة فاستفتح . قيل : مَن هـذا؟ قـال : جبرئيل . قيل : ومن معك؟ قال : محمّد. قيل : وقد أُرسِلَ إليـه. قـال : نـعم . قـيل : مَرحباً به . فنعم المجيء جاء . ففتح . فلمّا خلصتُ فإذاً هارونُ . قال : هذا هارونُ ، فسَلّم عليه ، فسلّمتُ عليه . فردّ . ثمّ قال : مَرحباً بالأخ الصّالحُ والنّبيّ الصّالح .

ثمّ صعد بي حتّىٰ السّماء السّادسة ، فاستفتح . قيل : من هذا؟ قال : جـبرئيل . قيل : ومن معك؟ قال : محمّد. قيل : وقد أُرسِل إليه؟ قال : نعم . قيل : مرحباً بـه . فنعم المجيء جاء . فلمّا خلصتُ فإذاً موسىٰ . قال : هذا موسىٰ ، فسلّم عليه . فسلّمتُ عليه ، فردّ . ثمّ قال : مرحباً بالأخ الصّالح والنبيّ الصالح . فلمّا جاوزتُ بكىٰ . قيل له : ما يُبكيك . قال : أبكي لأنّ غلاماً بعث بعدي يدخلُ الجنّةَ من أمّته أكثرُ ممّن يدخلها من أمّتي .

ثمّ صعد بي إلىٰ السّماء السّابعة ، فـاستفتح جـبرئيل . قـيل : مـن هـذا؟ قـال : جبرئيل . قيل : ومَن معك؟ قال : محمّد. قيل : وقد بُعِثَ إليه. قال : نعم . قيل : مَرحباً به ، فنعم المجيء جاء . فلمّا خلصتُ ، فإذاً إبراهيمُ . قال : هذا أبوك إبراهيمُ. فسلّم عليه ، فسلّمتُ عليه ، فردّ السّلام . ثمّ قال : مرحباً بالابن الصّالح والنّبيّ الصالح.

ثمّ دُفعتُ إلىٰ سِدرة المُنتهىٰ ، فإذاً نبقها مثلُ حلال بحر واذاً ورقـها مـثلُ آذان البغلة. قال: هذا سِدرةُ المنتهىٰ،فإذاً أربعةُ أنهار ، نهران باطنان ونهران ظاهران . قلتُ: ما هذا، يا جبرئيل. قال: أمّا الباطِنان فنهرانِ في الجنة . وأمّا الظّاهران فالنّيلُ والفراتُ.

ثمّ دفع بى إلىٰ البيت المعمور . ثمّ أُتيتُ بإناء من خَمر وإناء من لَبَن وإناء من عَسَل . فأخذتُ اللّبَنَ ، فقال : هي الفِطرةُ ، أنت عليها وأُمّتكَ .

ثمّ فرضت عليّ الصّلاةُ خمسينَ صلاةً كُلّ يوم ، فرجعتُ فمررتُ علىٰ موسىٰ فقال : بما أمِرتَ؟ قال : أمِرتُ بخمسين صَلاةً ،كُلّ يوم . قال : إنّ أمتك لا تستطيعُ خمسينَ صلاةً كلّ يوم ، وإنّى والله قد جرّبتُ النّاس قبلك وعالجتُ بني إسرائيل أشدّ المُعالجة . فارجع [٢٢ب] إلىٰ ربّك فاسألهُ التّخفيفَ لأُمّتك ، فرجعتُ ، فوضع عنّي

عشراً ، فرجعتُ إلىٰ موسىٰ ، فقال مِثلَهُ ، فرجعتُ . فوضَعَ عنّي عَشراً ، فرجعتُ ، فقال مثله ، فرَجَعت فوَضَعَ عنّي عشراً ، فرجعتُ بخمس صلوات كلّ يوم . قال : إنّ أُمّتك لا تستطيعُ خَمسَ صلوات كُلّ يوم . وإنّي قد جرّبتُ الناس قبلك وعالجتُ بني إسرائيل أشدّ المُعالجة ، فارجع إلىٰ ربّك فاسألهُ التّخفيف لأُمّتك . قال : سألتُ ربّي حتّىٰ استحييتُ ، ولكنّي أرضىٰ وأُسلّم . فلما جاوزتُ نادىٰ منادٍ : أمضيتَ فريضتي وخفّفتَ عن عبادتي .»

روايةٌ أُخرىٰ (۲)

روى : أنّ رسول الله ﷺ ، قال : أتيتُ بالبراق وهو دابّة أبيض طويل فوق الحمار ودون البغل يقع حافره عند منتهى طرفه ، فركبتهُ حتّىٰ أتيتَ بيتَ المَقدِس ، فربطته بالحلقة الّتي يربط بها الأنبياء . قال : ثمّ دخلتُ المسجد فصلّيتُ فيه ركعتين . ثمّ خرجتُ فجاءني جبرئيل بإناء من خمر وإناء من لبن ، فاخترتُ اللّبن . فقال جبرئيل : اخترتَ الفطرة . ثمّ عرج بنا إلىٰ السماء . وساق مثلَ معناه .

قال : فإذاً أنا بآدم فرحّب بي ودعا لي بخير . وقال في السّماء الثّالثة : فأنا بيوسف إذ هو قد أعطي شطرَ الحسن ، فرحّب بي ودعا لي بالخير . ولم يذكر بكاء موسىٰ . وقال في السّماء السّابعة : فإذاً أنا بإبراهيم مُسنِداً ظهره إلىٰ البيت المعمور . وإذا هو يدخله كلّ يوم سبعون ألف ملك لا يعودون إليه . ثمّ ذهب إلىٰ سدة المنتهىٰ. فإذا ورقها كآذان الصله، وإذا ثمرها كالقلال. فلمّا غشاها من أمر الله ما غشي بصرك. فما أحد من خلق الله يستطيع أن نسصها من حُسنها ، وأوحى إليّ ما أوحى ، فعرض عليّ خمسين صلاة في كلّ يوم وليلة . فنزلت إلىٰ موسىٰ . فقال : ما فرض ربّك علىٰ أمّتك قلتُ : خمسين صلاةً . قال : ارجع إلىٰ ربّك فاسأله التخفيف ، فإنّ امّتك لا تطيق ذلك . فإنّي بلوتُ بني إسرائيل وجرّبتهم قال : فرجعتُ إلىٰ ربّي . يا ربّ [۲۳ظ]...

أمتَك لا تطيق ذلك . فارجع إلىٰ ربّك فاسأله التّخفيفَ . قال : فلم أزل أرجع بين ربّي وبين موسىٰ ، حتّىٰ قال : يا محمّد، إنّهنّ خمسُ صلوات كلّ يوم وليلة ، لكلّ صلاة عشرٌ ، فذلك خمسون صلاةً . من همّ بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة . فإن عملها

كتبتُ له عشراً . ومن همّ بسيّئة فلم يعلمها لم يكتب له شيء . فإن عملها كتبتُ له سيّئةً واحدةً . قال : فنزلت حتّىٰ انتهيتُ إلىٰ موسى فأخبرته . قال : ارجع إلىٰ ربّك فاسأله التّخفيف فقال رسول الله ﷺ ، فقلت : قد رجعتُ إلىٰ ربّي حتّىٰ استحييتُ منه.

روايةٌ أخرىٰ (٣)

روى : أنّ رسول الله ﷺ ، قال : فرّج عنّي سقفُ بيني وأنا بمكة ، فنزل جبرئيل فعرج صدري ، ثمّ غسله بماء زمزم ، ثمّ جاء بطست من ذهب ممتلى حكمةً وإيماناً فأفرغه في صدري ، ثمّ أطبقه ، ثمّ أخذ بيدي ، فعرج بي إلىٰ السماء فلمّا جئتُ إلىٰ السّماء الدّنيا قال جبرئيل لخازن السّماء : افتح . قال : من هذا؟ قال : جبرئيل . قال : هل معك أحدٌ؟ قال : نعم ، محمد ﷺ ، فقال : أرسل إليه؟ قال : نعم ، فلمّا فتح علونا السّماء الدّنيا . إذاً رجل قاعد علىٰ يمينه أسوِدَةٌ وعلىٰ يساره أسوِدَةٌ ، إذا نظر قِبل يمينه ضحك وإذا نظر قِبل شماله بكىٰ . فقال : مرحبا بالنّبيّ الصّالح والابن الصالح . فقلتُ لجبرئيل : مَن هذا؟ قال : هذا آدمُ ، وهذه الأسودةُ عن يمينه وشماله نسمة . فأهل اليمين منهم أهل الجنّة والأسودة عن شماله أهلُ النار . فإذا نظر عن يمينه ضحك وإذا نظر إلىٰ شماله بكىٰ .

ثمّ عرج بي إلىٰ السّماء الثّانية ، فقال لخازنها : افتح . فقال له خازنُها : مثل ما قال الأوّل . قال الراوي : فذكر أنّه وجد في السّماوات آدم وإدريس وموسىٰ وعيسىٰ وإبراهيم . ولم لست كيف منازلهُم ، غير أنّه ذكر أنّه وجد آدم في السّماء الدّنيا وإبراهيم في السّماء السّادسة . [٢٤ب]

قال ابن شهاب : فأخبرني ابنُ حزم : إنّ ابن عبّاس واباحه الأنصاريّ ، فهما يقولان : قال النبيّ ﷺ : ثمّ عرج بي حتّىٰ ظهرت لمستوى اسمع فيه صرير الأقلام . فقال النبيّ ﷺ ، ففرض الله علىٰ أمّتي خمسينَ صلاةً .

فرجعت بذلك حتّىٰ مررت علىٰ موسىٰ ، فقال : ما فرض الله بك علىٰ أُمّتك فقلت : فرض خمسين صلاةً . قال : فارجع إلىٰ ربّك ، فإنّ أُمّتك لا تُطيقُ . فراجعتُ

ربّي، فوضع شطرها. فرجعت إلىٰ موسىٰ، فقلت: وضع شطرها. فقال: راجع ربك، فإن امّتك لا تطيق ذلك. فراجعتُ موضع شطرها فرجعتُ إليه. فقال: ارجع إلىٰ ربك، فإنّ امّتك لا تطيق ذلك، فراجعته فقال: هي خمس، لا يبدّل القولُ لديّ. فرجعتُ إلىٰ موسىٰ فقال: راجع ربّك فقلتُ استحييتُ من ربّي.

ثمّ انطلق بي حتّىٰ انتهىٰ بي إلىٰ سدرة المنتهىٰ وغشيها ألوانٌ لا أدرى ما هي، ثمّ دخلت الجنّة فإذاً فيها جنابدُ اللؤلؤ، وإذا ترابُها المِسكُ.

رواية أخرىٰ (۴)

روي به: أنّه لمّا أُسريَ برسول الله ﷺ انتهي بي إلىٰ سدرة المنتهىٰ، وهي في السّماء السّادسة، إليها ينتهي ما يعرج به من الأرض، فيفيض منها وإليها ينتهى ما يهبط به من فوقها فيفيض منها. قال: «إذ يَغشَى السِّدرَةَ ما يَغشىٰ» [النجم / ۱۶] قال: فراش من ذهب. قال: فأعطى رسول الله ﷺ، ثلاثاً: أعطي الصّلواتِ الخمس، وأعطي خواتيم سورة البقرة، وغفر لمن لا يشرك بالله من أمّته شيئاً المقحمات.

رواية أُخرى (۵)

روى: أنّه قال رسول الله ﷺ: «لقد رأيتني في الحجر وقريشٌ تسألني عن مُسراى، فسألتني عن أشياء من بيت المَقدِس، لم أثبتها، فكربت كرباً ما كربتُ مثله. فرفعه الله لي أنظر إليه، ما يسألوني عن شيء إلّا أنبأتهُم [۲۵ظ] وقد رأيتني في جماعة من الأنبياء. فإذا موسىٰ قائم يصلّي. فإذا رجل صوب جعد كأنّه من رجال سنؤة. وإذا عيسىٰ قائم يصلّى، أقربُ الناس به شبهاً عروةُ بنُ مسعود الثقفيّ. وإذاً إبراهيم قائم يصلّى، أشبهُ الناس به صاحبكم ـ يعني نفسه ـ فخانت الصّلاة. فأمّمتُهُم. فلمّا فرغتُ من الصّلاة، قال لي قائل: يا محمّد: هذا مالكُ خازن النّار، فسلّم عليه. فالتفتُ إليه فبدأني بالسلام.

روايةُ أُخرىٰ (۶)

روى: أنّ رسول الله ﷺ، يقول: لمّا كذّبني قريشٌ قمتُ في الحِجر. فجلّى اللهُ

لي بيتَ المَقدِس ، فطفقتُ أخبِرُهم عن آياته ، وأنا أنظرُ إليه.

شرح اللّغات

في «الصحاح» : «قال ابن عباس : الحَطيمُ : الجدارُ ، أعني جدار حَجَر الكَعبَة وحَجَر الكعبة ما حاواه الحَطيم المدار بالبيت جانب الشمال» . وفي «النهاية» : «الحِجر بالكسر ، الحائط المُستدير إلىٰ جانب الكعبة . العزل يحطمنّكم النّاسُ : يزدحمون عليكم . ومنه سمّي حطم مكّة . وهو ما بين الرُّكن والباب . وقيل : العربُ كانت تطرحُ فيه ما طافت به من الثّياب حتّىٰ يُتَحطّم بطُول الزّمان . وبعضُ المفسّرين ، قال : الحطيم : هو الحجر ، والرّسولﷺ حكى حكاية المعراج مكرّراً فعبّر عن الموضع في حكايته بالحَطيم وفي أخرىٰ بالحِجر . والمعنى واحد . ومنهم من قال : الحطيمُ غيرُ الحِجر ، وهو ما بينَ المقام إلىٰ الباب . وقيل : ما بينَ الرّكن والمقام وزمزم والحجر . وشكّ الرّاوي في أنّه سمع الحطيم أو الحجر .

والشِّعرة بالكسر ، شعر العانة أو منتبهُ . والاتيان بالطّست للملته . والغسل بقرينة الرّواية الأُخرىٰ . قالوا : المرادُ بقولهم وقد بعث أنّه بعث إليه الإسراء . فإنّ البعث للرّسالة كان معلوماً لهم . وقالوا : مملوٌّ إيماناً ، من باب تمثيل المعنى الغير المحسوس بالمحسوس فإنّ الطشت لا يملأ من الإيمان . كما أنّ القلبَ [٢٦ب] لا يملأ منه . والرّحب : السّعة . وقيل : الرّحَب : موضع التّرحيب . وبكاء موسىٰ لشفقته علىٰ أُمّته ، فإنّهم كانوا في مُخالفة الأنبياء . والأسودة هى أبناؤه الذين يعلمُ أنّهم منه . ولا يلزمُ في هذا العلم حُضورهم في السّماء . فهذه هي الرّوايات .

وحريٌّ بنا أن نُشير إلىٰ الدّرايات ، فإنّه لا يبعدُ ان يستبعد بعضُ الجهلة ، سيّما ممّا يظهرُ من ظواهر الأحاديث ، وإن يتوهّم الزّلل في الرّوايات لما يترااىٰ فيها من المُخالفات ، فلنتمّم الفصلَ بوَصلين.

[الوَصلُ] الأوّل في إزالة التُّوهماتِ والاستبعاداتِ

فمنها شَقُّ الصّدر مع بَقاء الحَياة ، ومنها غَسلُ القلب ورَدّها إلىٰ مَوضعها ، ومنها

تَمليةُ القَلب من الإيمان.

فلإزاحةِ تلك التوهُّمات وإزالة هذه الاستبعادات أقولُ: الحِكمُ والفضائلُ والعُلومُ والخَصائل إنّما تفيضُ على النّفوس الإنسيّة بحسَب استعدادتِها بأرواحِها. وهذا إنّما يتأتّىٰ بصفاء الرُّوح. فكلّما كان الرُّوحُ أصفىٰ كان استعدادُ الحِكم والعلوم أوفىٰ، وكلّما كان من الخَلط بالخَلط أخلىٰ كان جِلوةُ الحَقّ به وفيه أجلىٰ، والاطمينانُ بالتّصديق والإيمان أقوىٰ. فإذا كان القلب مملوّاً بروح في غاية الصّفاء والبَهاء كان استِعدادُ الحِكم والعُلوم شديداً والاطمينانُ بالإيمان كثيراً، وإذا كمل وتمَّ استعدادُ مُستعدّ لأمر، حصل فيه بسُرعة بلا مُهلة، وكثيرٌ من العُلوم يقومُ بالرُّوح.

وعلى رأى القُدَماء من الحُكماء المُنوّر أبصارُ بَصائرهم بالأنوار المُقتبسَة من مِشكاة وحي الأنبياء يقومُ كثيرٌ من المدارك بمُدركاتها بالرُّوح في القلب. والآثارُ والاخبارُ من أخبار الأحبار تُفيدُ هذا أيضاً، كما لا يخفىٰ علىٰ من تتبّعها. فإذا ملئ القلبُ بالرُّوح الجيّد الصّافى الوافي الكافي لحُصول [۲۷ظ] الحِكم والعُلوم والاطمينان بالإيمان. فقد حصل فيها العُلوم والحِكم والإيمان. إذ كُلُّ عَرَض حالّ في جِسم يَحصُلُ في مَحَلّ ذلك الجِسم بلا تأويل وتكلُّف. والحكمُ بأنّ الحكمة في الذّهب لحكمة هى أنّ الذّهبَ كالقلب مِزاجاً قريبٌ منها جِدّاً امتِزاجاً. ومن يَخلُق رُوحاً في قلب فهو قادرٌ علىٰ أن يخلق مثلهُ فيما يقربُ منها، والرّوح المُستعدّ كما يُردُّ إلىٰ القَلب من موارد الأوردة يصحُّ أن يرد من موارد الفُيوض الإلٰهيّة الّتي هي أجَلُّ وأعلىٰ. ولعلّ هذا أتمُّ وأوفىٰ. والحُكمُ بأنّ الحِكمةَ في الذّهب لعلّه مجازٌ مُجازٌ وجوازٌ بوجوه شائعة دائقة نكت من البراعة والبلاغة، ثمّ بعدَ تحقّق حقيقة الرُّوح والحكمة علىٰ ما حقّقتهُ يتحقّقُ حقيّةُ الحقيقة بلا مَجاز إلىٰ مجاز.

وأمّا شَقّ الصَّدر فغيرُ غريب ولا بعيد. وإنّما يستعبدهُ من لا يعرف ولا يستبعدهُ من يعرفُ الطَّبائع والصَّنائع، فإنّ كثيراً من الأطبّاء يسقونَ الأعضاء للإصلاحات والمُعالجات والبطّ من الطّبّ.

ولعلّ العارفَ ، بعد تعريفنا هذا الاستعداد ، لا يستنكر شيئاً من شَقّ الصَّدر وغَسل القلب وتمليتها من الحِكمة بالاطمينان والتّصديق والإيمان ولا يزلزله تمويهاتُ الشّيطان.

ومنها : أنّ النّيلَ والفُراتَ نهران منبع كُلّ معلوم ، منبع النّيل جبالُ القمر ومنبعُ الفرات جبالُ في حدود ديار بكر والشّام ولا ينصبّ شيء هذا من السّماء.

فأقولُ في جواب هذا : إنّ الماء النّابع من المنبع ينبعُ ببُخار مائيّ سحابيّ ينقلبُ ويتقاطرُ . فإذاكان مثلُ هذا البُخار ماشياً مُنبعثاً من السّماء علىٰ ما في الحديث . ثمّ ورد ونزل إلىٰ رؤوس تلك الجِبال بمنافذها وأغوارها صحّ الأمران . ولم يبق للاستبعاد ودعوى المُحال مَجالٌ . ثمّ الّذي آمن بالجنّة وأشجارها وأثمارها لا يستبعدُ ولا يستنكرُ كونَ شَجرة السِّدر بأوراقها وثمارها في قريب من بابها.

ومنها أنّ ضِحكَ آدمَ وبكاءهُ نظراً إلىٰ يمينه وشماله يشعرُ بكون أرباب النّار [٢٨ب] في السّماء . فأقولُ في جوابه : توهّم الاشعار لعدم الشُّعور بيمينه وشماله. وذلك أنّ أولاد آدم خلق منه . ففي بعضها قُوّة اليمين ، وهي الصّحّةُ والقُوّةُ والاستقامة ، أكثرُ ، وفي بعضها هذه أنقصُ . فالكمالُ يُورِثُ الكمالَ ، والنّقصُ النّقصَ .

الوصل الثاني <بيان الاختلافات>

من المُخالفات المُموّهة أنّهُ ورد في بعض الرّوايات ما ليس في غيرها . ومنها : أنّه ورد في رواية : أنّهُ رأى بعضَ الأنبياء ، كموسى وعيسى عليهما السلام ، في بيت المَقدِس ، وفي رواية أُخرىٰ أنّه رآهُما في السماء. ومنها : أنّه يُروىٰ أنّ الأوانى أُعطى لهُ في السّماء . وروى أيضاً أنها أُعطى له في بيتِ المَقدِس . ومنها : أنّه روى أنسٌ في حديث : «بينا أنا في الحطيم» ، وفي حديث : فرّج عنّي سَقَفُ بيتي .

وأقولُ : من عرف يعرف أنّه لا خِلافَ ولا مِراء في شيء منها . أمّا الأوّل ، فلأنّه لا يلزمُ في كُلّ رواية وحكاية ، حكايةُ جميع ما رأى . ففي بعضها ، حكى بعض ، وفي بعض بعضٌ . وأمّا الثّاني ، فلإمكان رؤية الأنبياء في مكانين ، فإنّ لهمُ التّمكّن من

تطواف الأطراف. وأمّا الثّالث، فلأنّ المكرم إذا أتى مَنزلاً أُوتى لهُ ضيافة أشربته، فأيّ استبعاد في اتيان الأوانى والأشربة في منزلين ومَنازل. وأمّا الرابعُ، فالمُخالفة لا تتبيّنُ إلّا إذا تبيّن أنّ البيتَ الّذي عرج منه، وهو بيتُ أُمّ هاني، لم يكن في الحِجر وقربه ومن تصوير مواضع الحرم علىٰ ما صوّره بعضُ المهرة فيه أو بقر به جِدّاً. وعلى التّقديرين لا مُنافاة ولا مُخالفةَ. ولو تبيّن التباين أمكن التّوافق بأن يكونَ بعد بفرح البيت والصُّعود يزول في الحجر، وفيه شَقّ الصَّدر، ثمّ الصّعود بالرّكوب.

وبعضُ المفسّرين للأحاديث قال في رفع هذا التنافي أنّه كان لرسول الله ﷺ معراجان، أحدهما في اليقظة وهو ما رواه مالك، و ثانيها في النّوم. قالوا: أراد بـ«بيتي» بيتَ أُمّ هاني، لما يدلُّ عليه روايةٌ أُخرىٰ. وإضافتهُ إلىٰ نفسه لأنّه تربّىٰ فيه. وإضافته إلىٰ أُمّ هاني لأنّها كانت صاحِبَها. هذا ما قالوا، وفيه ما فيه، كما لايخفىٰ علىٰ النّبيه. وللإضافة الأولىٰ وجهٌ آخَرُ لعلّه أولىٰ.

الباب الأوّل بَيانُ الإمكانِ

تقررّ في العلوم الرّياضيّة بالبراهين الهندسيّة، علىٰ رأي الحُسّاب، أنّ مقدار درجة واحدة من مُقعّر الأطلس لما به نِصفُ قُطر الأرض واحد ۷۱۲۲۳ وأميالها ۹۳۴۳۰۹۳. فالفلكُ الأطلسُ يقطعُ بمُقعّره في ثلاث عشر ساعة مُستوية هذا القدر من الأميال. وإذا تحرّك مقدار دقيقة واحدة، وهي جزءٌ من سبع مائة جُزء من ساعة مُستوية كان قد قطع من المسافة ۱۹۹۷۱۸ وسدس، وفي مُدّة طلوع جِرم الشّمس بتمامها يتحرك هذا القدر، وفي زمان يتكلّم أحدٌ بواحد يتحرّكُ الأطلسُ بمُقعّره ألف وسبع مائة وثمان وثلاثون فرسخاً ونصف قُطر الثّوابت وهو من المركز إلىٰ مُحدّب السّابع الّتي مُقعّر الثامن ۲۹۲۴۳۳۴۳. بيت:

از مركز خاك تا نهُم چرخ برين ‌ ‌ ‌ ‌ كهفغ ز مجغ شمج به فرسنگ شمار

فالفلكُ في ساعات تقطع درجات، مسافتُها أكثرُ من نِصف القُطر، سيّما وقد نقص منهُ نصفُ قُطر الأرض. فظهر أنّ قطع تلك المسافة في مُدّة قصيرة قاصرة من

اللّيل ممكن غيرُ مُحال ولا مُستبعد.

وإن توهّم أنّ أهل الهيأة تصوّروا الأفلاك متماسّة لا مسافة بينها وأنّ لكلّ قدر آخر من الثّخن، وظاهرُ الحديث يدلُّ على البُعد والمسافة والتّساوي، فإنّه يُفيدُ أنّ مقدار ثخن كلّ سماء يقدر لقطع بخمس مائة، وكذا ما بين سمائين من المسافة.

فليعلم أوّلاً: أنّ الحديثَ الصّحيحَ أصحّ ممّا ظنّ استحساناً بفريقين، وأنّ التّماسّ الّذي حكموا به مبنيٌّ علىٰ عدم إثبات الفصل. وذلك غيرُ يقينيّ، بل هو استحسان منهم، وأنّ زمان قطع المسافة يختلفُ طولاً وقصراً باختلاف قوائم المُتحرّك. فإن قطع مسافة بقوام أغلظ، كالماء، مثلاً، لا يتأتىٰ في زمان تساوى قطع فعل تلك المسافة بقوام أرقّ كالهواء إذا تساوت الحركة بقوّة المُحرّك والمُتحرّك [٣٠ب].

فمن الجائز أن يكون قوامات ما بين السّماوات وأجزائها مختلفة رِقّةً وغلظاً وكانت بوجه يقطع كُلّ في زمان مُساو لزمان قطع الآخرَ عند استواء المتحرك والقوّة المُحرّكة علىٰ أنّه ليس في الحديث لفظ السّنة، بل العام، والعام عام يحمل على السّنة وغيرها ممّا هو أقلُّ منها علىٰ ما نقلنا عن أهل اللغة في تفسير بعض الأحاديث. فالحديث صحيح غير مُخالف لرأي أهل الهيأة.

فاعرف هذا، فإنّه، مع أنّهُ ظاهر جليّ على الأجلّاء، خفى علىٰ من خفى عليه الجَلايا، واعرف أنّ صاحبَ القُوّة القُدسيّة كثيراً مّا يعرفُ ما يعزبُ عنه غيرُه، ونهايةُ نظر أهل النّظر قاصر عن بداية ما يظهرُ في بداية النّظر للبصير الخبير من أهل البصارة. والله أعلمُ.

البابُ الثّاني في ردّ شُبَهِ المُنكرينَ المُستَبعدينَ

قالوا: إنّ هذه الحالة لو كانت كانت في النّوم، لا في اليقظة. ويدلُّ علىٰ هذا: القُرآنُ والأثرُ والمعقولُ:

أمّا القُرآنُ، فآيتان. الأولىٰ: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الرُّءْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ﴾ [الاسراء / ٦٠]، والرُّؤيا هي الرُّؤيةُ في المنام. والمرادُ: المِعراجُ. الثّانية قولهُ في

صفة الأنعام : ﴿ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنفُسِ ﴾ [النحل / ۷] . وحُصولهُ في المعراج يُنافي ذلك.

وأمّا الأثر . فقولُ عايشة : «ما فقدتُ جَسَدُ رسول الله ، ولكن أُسري برُوحهِ» . وعن معاوية : أنّهُ قال في جوابِ ما سئل عنهُ من الإسراء : «كانت رؤيا صادقةً» .

وأمّا المعقولُ : فوُجُوهٌ . الأوّل : أنّ الجَسَدَ جِرمٌ ثقيلٌ فلا يقبل الصّعودَ إلىٰ السّماوات . الثّاني : أنّ في الزّمان القليل الصّعُود من الأرض إلىٰ العَرش غيرُ معقول . الثّالث : أنّه لو كان صِدقاً فلِمَ لم يتّفق في النّهار من واحد أن يَصعَدَ في الهواء قدرَ شِبر. الرّابع : أنّه كان عالماً بأنّه نبيٌّ ، فلا حاجة إلىٰ اظهار هذه الشّفاعة. الخامس : أنّه لو صعد إلىٰ السّماء لحصلَ فيها فَطورٌ وانشقاقٌ . [۳۱ ط] وذلك خلافُ قوله تعالىٰ : ﴿ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ﴾ [الملك / ۳] علىٰ سبيل الإنكار.

وأُجيبَ عن الأوّل : بأنّ الرّؤيا هى الرّؤية ، يقالُ : رأي يرىٰ رؤيةً ورؤيا . وليست هي رؤيا المنام . بل الآيةُ دالّة علىٰ أنّها رؤيةُ يقَظَةٍ ، فإنّها هى الفتنة . ورؤية المنام لا تُورثُ فِتنةً ؛ فإنّ آحاد النّاس ، كاليهود والنّصارىٰ ، قد ترىٰ في المنام العَرشَ والسّماواتِ والجَنّةَ والنّارَ .

وأُجيبَ عن التّمسّك بخبر عايشة ومعاوية : أنّه شهادةُ نفى ، فلا تُقبَلُ . وأقول : يتفطّنُ من تصديق معاوية بحالها له من المقال.

وأُجيب : عن أوّل ما استدلّوا به من المعقول بمنع عدم إمكان صُعود الثّقيل . قيل : كما أنّهُ يمكنُ هُبُوط جبرئيل ، وهو روحُ غير ثقيل ، يمكنُ صُعود محمّد. ولا يخفىٰ ما فيه من التّمويه . والصّوابُ من الجواب ما أُقرّرهُ فيما سأُقرّرهُ .

وأُجيبَ عن عدم جواز قطع المسافة الطويلة في زمان قصير بالجواز بوجوه : أوّلها نُزولُ جبرئيل . وثانيها : أنّ الفلك يتحرّكُ من أوّل اللّيل إلىٰ آخِرهِ نِصفَ الدّور . وذلك أكثر من البُعد بينَ الأرض والسّماء ، فالقليل يسعُ الصُّعود والنُّزول.

الثالث : أنّ كرة الشّمس مثل كُرة الأرض بمائة وسِتّ وستّين ، ويطلعُ بتمامها

في زمان قليل، فكيف يبعدُ صُعودُ محمّد.

الرابع: أنهُ حكى عمّن عنده عِلمُ الكتاب أنه أتى بعرش بلقيس من اليمن إلىٰ الشام في أقلّ من طرفة عين، فكيف يُستبعدُ من محمّد، وقد آتاهُ الرّحمٰن عِلمَ القرآن، الصُّعودُ إلىٰ ما فوق السّماء في ليلة واحدة أو بعضها كمثلها، علىٰ ما قيل.

الخامس: أنّه تعالىٰ قوّى الجِنّ لحمل كرماسيّ سليمان في يوم مسيرة بشَهر.

السادس: خُروج شعاع ...

وأُجيبَ عن قولهم: لم لا يرتفعُ في النّهار: بأنّ الله يفعلُ ما يشاءُ ويحكمُ ما يريدُ. ولو حصل فيه لم يظهر فرقٌ بين الصّدّيق والزّنديق. هذا ما قالوه سُؤالاً وجَواباً.

وأقولُ: الإيراداتُ كلّها مردودةٌ، ولا شيء منها بشيء ولا معقول ولا مقبول. فإنّي أوضحتُ بيانَ الإمكان بأوضح وجه وأتمّ مقال [٣٢ب]، وأنّ محمّداًﷺ، لم يصعد وحده، بل حملهُ البراقُ الّذي أتىٰ به جبرئيل، فلم يبق إشكالٌ في صعود الثّقيل، وأنّهُ لِم لم يصعد مرّةً أُخرىٰ في النّهار.

ثمّ لا يخفىٰ علىٰ أُولى النّهىٰ ممّن له خبرٌ عن الخبر: أنّ للسماوات أبواباً يتأتّى الدُّخول فيها والعُروج عليها من أبوابها ولا يستلزمُ هذا انفطاراً ولا اشتقاقاً بالدّخول.

ولا يُشكِلُ بفَتحها وسَدّها لوكانتا لوهما انهما لا تتأتى إلّا بحركة مُستقيمة مُتّسعة. لأنّ للمنع دفع، ولو سُلّم فلم يلزم لزوم كون باب كُلّ سماء من جِنسه وعدم انفطار السّماء نفسها لو تمّ لا يتمُّ ولا يستلزم عدم انفطار ما بينها من الأجسام الّتي يتأتى الحركة فيها، ثمّ النُّصُوص دالّة علىٰ إمكان الانفطار والانشقاق. اتلُ قوله تعالىٰ: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ﴾ [الانفطار / ١]، و﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ﴾ [الانشقاق / ١].

الباب الثالث <المعراج الجسماني ممكن عقلاً ونقلاً>

إنّ المعراجَ الجِسمانيّ ممكنٌ وقد أخبر عن وقوعه الصّادقُ الأمينُ، فهو صادقٌ واقعٌ. أمّا الإمكان عقلاً، فلما عرفتَ نقلاً وعقلاً. وأمّا الأخبارُ فلما لهُ من الاشتهار، كالشمس في رائعة النّهار، وهو كالمتواتر معنىً في الآثار والأخبار، والرّؤيا الّتي

وردت في الآية المُتواترة دليلُ جليٌ جليلٌ علىٰ ما ادّعينا ؛ فإنّ رُؤيا المنام كما لا يخفىٰ على أولى الأفهام لا تُورِثُ فتنةً .

يُحكىٰ أنّ أبا جهل لمّا سمعَ حكايةَ المعراج استنكر واستبعد ، وقال : إنّهُ كانَ يدّعى نُزولَ الملك من السّماء عليه ولم نقبلهُ ، والآن يدّعى صُعُودَهُ إلىٰ السّماء . وكان يُشَنّعُ ويَنسِبُ قائلهُ إلىٰ ما لا يليقُ . فحجّ عليه بعضُ الصَّحابة في مُشاجراته . فلما بلغ الخبرُ إلىٰ النبيّ ﷺ ، استحسنَ ذلك الصّحابيَّ وصدّقهُ وجَعَلَهُ صِدّيقاً .

وأيضاً قد اشتهر وشاع أنّ بعضَ الجَهَلة ارتدّ عن الإسلام بسماعه هذه الحكايةَ ، قائلاً : كيف نقبلُ قولَ من يقولُ مثلَ هذا . وظاهرٌ أنّه لو كان [۳۳ظ] رؤيا المنام لم يكن للإنكار والارتداد وجهٌ . إذ كثيراً مّا يرىٰ آحادُ النّاس ، كاليهود والنّصارىٰ ، السّماواتِ والملائكةَ والجنّةَ والنّارَ ، ولا يُنكرهُ أحدٌ ، ولا يستبعدُ ، بل يُأوّلُ . وأيضاً كثيرٌ من العلماء فسّروا قوله تعالى ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ﴾ [النجم / ۱] بنزوله ﷺ من السّماء.

وأيضاً اتّفق جُمهورُ علماء الإسلام باختصاصه ﷺ من سائر الأنبياء بالمِعراج الجسمانيّ والشّفاعة . وهُما أمران عَجيبان فارقان للعادة . ورؤيا المنام ليس بخارقٍ للعادة ، كما لا يخفىٰ .

قال كثيرٌ من علماء الإسلام : إنّ مُنكر المِعراج الجسمانيّ مُكذِّبٌ للنبيّ ﷺ ولأصحابه ، ومُنكرٌ لما هو كالضّروريّ من الدّين . فهو في إنكاره هذا فاسقٌ بل كافرٌ .

ومن الحشويّة من الجَهَلة المُنكرين من يقولُ : إنّه يُحكىٰ أنّه عند عُروجه بال إبريقٌ وجرى الماءُ من بلبلتهِ ، وعند العَود كان الماءُ جارياً بَعدُ . وكيف يمكنُ الصُّعودُ إلىٰ ما فوقَ السّماوات والتّكلُّم بتلك الكلمات ثمّ العَودُ في مُدّة قصيرة لم تبلغ إلىٰ عُشر ساعة .

ولا يذهبُ عليك أنّ هذا الاستبعادَ والاستنكار ليسَ إلّا لِجَهالة وحماقة ؛ فإنّ الإبريقَ إذا كان كبيراً كثيرَ الماء وبلبلته ضيّقةٌ لم يَخلُ من الماء إلّا بزمان طويل . ويحتملُ أن لا يَخرُجَ بالتّمام إلّا بعدَ تمام أيّام . وكيف دريتَ أنّ ذلك عُشرُ ساعة .

ولو كان هُناك استبعادٌ مّا يرتفعُ بما قدّمنا.

هذا ، والّذي أرىٰ أن من عرف كيفيّةَ الاستكمال ، عَرَفَ أنّ الكمالَ بالكَمال إنّما يتكمّلُ بمعرفة البَلايا والخَفايا المودعة في الملك والملكوت من الأرضين والسّماوات العُلىٰ . وكُلُّ من كان أكملَ ،كان هذه المعرفة فيه أتَمَّ وأكمَلَ ، ومن عرف ما عرف بجميع قُوى ، يمكنُ أن يعرفَ بها ، فهو في المعرفة اكمل وأعلىٰ ممّن عرفه ببعضها . ولمّا أراد الله تعالىٰ تكميلَ نبيّنا بأكمل كمال كمّلهُ بمعرفة ما يكمّلهُ بعَين العِيان وشُهود الوجدان ، فأسرىٰ به إلىٰ المسجد الأقصىٰ ، ومنه إلىٰ السّماوات العُلىٰ .

قيل : [٣٤ب] ما الفائدةُ في هذا ولِمَ لم يرتفع أوّلاً إلىٰ السّماء؟ أُجِيبَ : بأنّ الله لا يُسألُ عمّا يَفعَلُ . علىٰ أنّ في هـذا زيـادةَ شَـرَف لتـلك المـنازل بـيمن قَـدَمِهِ . ولا يخفىٰ أنّ ما قدّمنا أولىٰ ، سِيّما إذا لم يكن في ساهرة الغَبراء ما لا يشاهد فيها أعرف هذا لعرف وجه عدم المُرور بجميع أجزاء السّماء ، على أن يفتح هذا الباب لفتح وجهاً من الجواب.

الباب الرابع

أُسوّى له مِصراعين بتمهيد مُقدّمة : هي أنّهُ جرى لِسان أهل اللّسان بأنّ الكناية عبارةٌ عن إرادةِ معنى العبارة ولازمه عُرفا معاً. الأوّل : أنّ فتحَ باب بناء يـصحُّ أن يكونَ كنايةً عن معرفة ما فيه أجزاءً أو أحوالاً ومَن فيه أشخاصاً وأشخاصاً ذواتاً وصفاتاً . الثّاني : أنّ معرفة المـعارف بـالتّعارف تـتأتىٰ بـوجوه العـبارة والكـناية والإشارة . فهذه معروفة مشهورة . ولهذا وجهُ آخرُ يعرفهُ من يعرفهُ ، وهـو أجَـلُّ وأجلىٰ ، مع أنّهُ أخفىٰ من اليسافه .

وتصوير هذا الوجه أنّ النُّفوسَ المُشرقة القُدسيّة ، بل الذّكيّة الزّكيّة ، إذا أقبلت بعضُها إلىٰ بعض ربما تحدثُ المُصَوّرة ... منه ... فحلت فتجلّت صُوَر مُصَوّرة من المُفيض في المُستفيض ، وقد تتأتى الإفاضة والاستفاضة من الجانبين.

والتحقيق الّذي يقتضيه النّظر الدّقيق : أنّ الأوّل قلّما يتأتى إلّا بالأُخرىٰ . تفطّن بهذا ولا تستبعد فيما يُحكىٰ ويُروىٰ : أنّ الحُضور في محضر الكمّل يُكمّلُ ويزولُ الإشكالات ويُفيدُ الفُيوض والاستفاضات من غير عبارة وكناية وإشارة . وأيضاً كثيراً مّا يكونُ الحُضورُ واللقاءُ بأدنى إشارة مُفيدٌ لفوائد لا يُفيدها كتابةٌ ولا عبارةٌ قيل بالفارسيّة ، بيت :

عشق را طیّ لسانی است که صد ساله سخن یـا بـا مـا ز بـه یك چشـم زدن مـی‌گوید

فعلىٰ هذا لا يَبعُدُ أن يَعرفَ أحدُ المعروفين بالتّسليم والتّرحيب مَعارفَ جمّةً من صاحبه . ولا يذهبُ عليك ان يُفتَح كُلٌّ من المِصراعين علىٰ ما فتحهُما وسّواهُما ينفتح أبوابٌ [۳۵ظ] شتّىٰ إلىٰ معارف لا تُحصىٰ . ففتحُ باب كُلّ سماء يُفيدُ معرفةَ ما فيها ومَن فيها . وبهذا يظهرُ السّماوات بكميّاتها وكيفيّاتها وسائر حالاتها ويتجلّىٰ من فيها من الملائكة بأحوالها وبسلام الأنبياء وترحيب هؤلاء العُلماء العُرفاء الأصفياء الأذكياء عليهم السلام يبالى معرفة معارف شتّىٰ . فهذا وجهٌ وجيه سنح لي ، به يظهرُ وجهُ الفَتح وسِرّ السّلام معه وله وعليه وعليهمُ الصّلاةُ والسّلامُ وسرّ سُؤال الخَزَنَة والبُوّاب في الأبواب.

وإن اختلج في وهمك أنّ أبدانَ الأنبياء مدفونةٌ في الأرض وأرواحَهُم في الجَنّة في مَقعَدِ صِدق عند مَليك مُقتدر . فما الّذي يكونُ في السّماء ؟ فليُعلم أنّ هؤلاء أكرمُ عندَ الله مِن أن تبلىٰ في الأرض.وفي الأحاديث علىٰ هذا أماراتٌ،بل دلالاتٌ.فلهُم التّمكّنُ في كُلّ مكان ، ولطواف الأطراف بكُلّ زمان لهُمُ الجَنّةُ مَطافٌ ، وفي الكَعبة والقِبلة طوافٌ . هذا على قوانين الدّين . وأمّا علىٰ رأي الاشراق فالوجهُ ظاهِرٌ . وفيه ما فيه .

وأمّا العُبُورُ على النّار لو سُلّمَ أنّ تحت السّماء ناراً ، فعلىٰ سبيل منع الخُلوّ يُتصوّرُ وجوهٌ : الأوّل حُكم الله تعالىٰ بسلامة الأنبياء وعدم قبولهم للنار والاحتراق ، كالملائكة . الثّاني أمرهُ تعالىٰ بأن تكونَ النّارُ بَرداً وسَلاماً ،كنار إبراهيم عليه السلام ، الثّالثُ الإعجازُ ، الرّابعُ المُرور بسُرعة ، والنّارُ لا تُحرِقُ إلّا بـمُدّة ومُـهلة . الخـامسُ : أن يكون فيها أبوابٌ ،كما في السّماوات .

ʿArabī were allowed to have their effect when Iran had definitely turned Shīʿī, and this in the very capital of the new nation, Iṣfahān.

The names of Mīr Dāmād and Mullā Ṣadrā will be frequently heard during this Colloquium side by side with those of Ibn Bājja, Ibn Ṭufayl and Averroes. It is hoped that this unusual, simultaneous approach to two quite different "schools" of Islamic philosophy will cast some new light on what this philosophy is all about.

Hermann Landolt